علي آيت أوشان

السّياق والنّص الشّعري

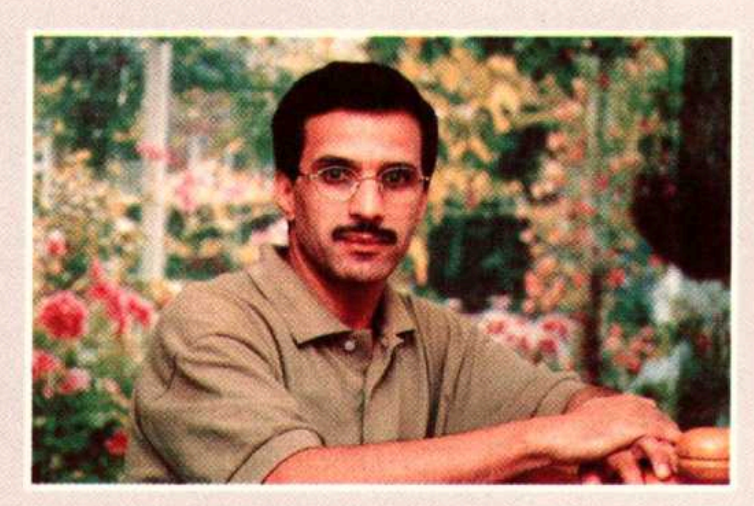
من البنية إلى القراءة



دار الثقافة
للنشر والتوزيع
الدار البيضاء

هـذا الكتاب

إن الاهتمام بالسياق (Le contexte) والبحث فيه والتنظير له كأداة إجرائية أخذ مساراً أكثر عمقا مع الدراسات التداولية والتي تجاوز أصحابها الإطار اللغوي المحض حيث السياق يرتبط بالمورفيمات والمعجم والتركيب والدلالة إلى ماهو نفسي واجتماعي وثقافي، وأصبح المجال المعرفي الذي يفرضه الاشتغال اعتماداً على مصطلح السياق متنوع ومختلف منه ما يرتبط بالمتكلم والمتلقي وشروط إنتاج الخطاب والزمان والمكان.. وغيرها من المستويات المتحكمة في النسق اللغوي. وأمام تعذر الإحاطة بكل هذه الجوانب حصرنا اهتمامنا في البعض منها كتداولية أفعال الكلام وعلم النص وتحليل الخطاب وجمالية التلقي مع الإشارة إلي إسهامات الفكر العربي القديم متمثلا في «علم أصول الفقه» من خلال المبحث اللغوي للأصوليين، ونحن بذلك لا نهدف إلى إثبات الذات بحكم أن الاستراتيجية التي توجه عملنا تتجاوز مثل هذا الطرح، وإنما نهدف إلى جعل القارئ يدرك أن تاريخه المعرفي «التراث» تاريخ صلب وله مميزاته وخصوصياته لذا يجب إعادة قراءته من زاوية تاريخية المعرفة للمحافظة على هويتنا أمام التحديات المعاصرة.. وحتى نكسبه جزءا من قوته التداولية متجنبين ما أمكن القراءة السلفية المحافظة، ومؤمنين بالتواصل والمثاقفة والتأويل (...)



علي آيت أوشان



38 د.

السّياق والنّص الشّعري

من البنية إلى القراءة

علي آيت أوشان

السياق والنص الشعري

من البنية إلى القراءة



دار الثقافة

مؤسسة للنشر والتوزيع

32-34 شارع فيكتور هيكو — ص.ب. 4038

الهاتف 230.76.44(02) - 230.23.75(02)

157 شارع لاجيروند — الهاتف 283.14.17(02)

فاكس 230.65.11(02) — الدار البيضاء 20500

الكتـــاب : السياق والنص الشعري من البنية إلى القراءة
المؤلـــف : علي آيت أوشان

الطبعـــة : الأولى 1421هـ/2000م
الغـــلاف : لوحة للفنانة حياة القادري
الطبـــع : مطبعة النجاح الجديدة – الدارالبيضاء
الإيـــداع : القانوني رقم 2000/1399
ردمـــك : 2000-02-309-4

إلى الأم أمينة

وكأني بذكرها أستعيد حلما انكسر باكرا

دون أن يزهر ونشوة طفولية

تغرقني في حزن يرن كأنه أجراس

برج يرتعش. فيجلجل صوته السياب حزينا

لابد أن تعود

وإن تهامس الرفاق أنها هناك

في جانب التل تنام نومة اللحود

تسف من ترابها وتشرب المطر.

تقـديـم

د. ادريس بلمليح

إن تطبيق مفاهيم اللسانيات المعاصرة في مجال الدرس الأدبي أمر محفوف بكثير من المخاطر، وطريق تعترضه صعوبات متعددة، ذلك أن التطابق المبدئي بين لغة الكلام اليومي ولغة الشعر يبتعد بنا لا محالة عن الأهداف المتوخاة من علمين إثنين متمايزين ومتباعدين في مستوى التصورات العامة وفي مستوى مجال الاهتمام : علم اللغة اليومية، وعلم جمالية اللغة.

فيفترض في الأول إيجاد مقولات كبرى وشاملة لدراسة البنية الصوتية، والمعجم، والتركيب، والدلالة. ويفترض في الثاني مطاوحة القضايا الشائكة التي تُثيرها القصيدة الشعرية أو الرواية مثلا.

وبالرغم من كل ذلك، لا نستطيع أن ننكر جملة وتفصيلاً بأن هناك من القضايا ما يُعدُّ مشتركاً بين هذين العلمين، ومتداخلا بين أدواتهما الإجرائية،

ولعلَّ هذا التداخل أو الاشتراك هو ما حدا بكثير من الباحثين - قدماء ومحدثين - إلى الملائمة بين مفاهيم علم اللغة والنقد الأدبي، أو اللسانيات والشعرية. وخير شاهد على ذلك لدى القدماء، أرسطو في باب العبارة من كتاب الخطابة، وعبد القاهر في نظرية النظم من دلائل الاعجاز.

أما أبرز مثال لدى المحدثين فهو التيار البنيوي الذي اعتبر اللسانيات علماً رائداً لسائر العلوم الالنسانية، ثم حاول في هذا الاطار مطابقة المفاهيم بينها وبين الانتربولوجيا وعلم الاجتماع والشعرية.. إلخ، ويعد جاكبسن أحد المتزعمين الكبار لهذا التوجه.

إن جاكبسن حدّدَ للغة ست وظائف مشتركة، تغلبت أو تهيمن واحدة منها في الرسالة على الوظائف الأخرى، فتكشف عنها في هذه الرسالة منتمية إلى موضوعها الواقعي حين تسودها الوظيفة المرجعية، وإلى الباث أو المتكلم حين تسيطر عليها الوظيفة التعبيرية أو الانفعالية، ثم إلى ذاتها حين تهيمن عليها الوظيفة الشعرية...

لقد عمل هذا العالم على الملائمة والتطابق اللذين أشرنا إليهما، اعتماداً على نظرية التواصل الآلي. إذ نلاحظ لديه أنه ربط بين كل مكون من مكونات هذا التواصل وبين وظيفة معينة تهيمن على الرسالة التي تنجز بحسب خطاطته المبدئية.

إننا لسنا في حاجة اليوم إى أن ننتقد نظرية الوظائف الست عند جاكبسن، بل يكفي فقط أن نُشير إلى أنها نظرية مستمدة في سنة 1962 من نموذج التواصل عبر التلغراف لدى شانون وويفر اللذين نشرا كتابهما الشهير (théorie Mathém-atique de la Communication) سنة 1949، ثم نطرح سؤالا كبيراً لسنا الآن في مقام الاجابة عليه، فنقول : ألم تتطور نظرية التواصل خلال هذا النصف قرن، داخل عالم رهيب ومدهش للتواصل ؟

ثم نقدم بين يدي هذا السؤال أننا بصدد مسألة دقيقة ومحددة وصارمة هي مسألة (السياق). فنقول :

إن جاكبسن حين اعتبر السياق مكونا جوهريا من مكونات التواصل، لم يحدد أي مفهوم علمي دقيق لهذا المكون. بل اعتبره - بشكل فضفاض وعائم - هو ما أو من نتحدث عنه، أي موضوع الرسالة. وفرق شاسع في رأيي بين الموضوع وبين سياق الرسالة.

ثم إنه حين ربط هذا الربط القسري بين السياق والموضوع، جعل الوظيفة في هذه الحال هي الوظيفة المرجعية، في حين أن المرجع أو المرجعية مستوى محدد من الاشارة اللغوية مفردة كانت أو مركبة.

ويتشابك، الأمر أكثر حين نعرف - ولو بشكل سطحي ومبسط - بأن الرسالة الشعرية تَفْتَقِرُ إلى السياق، إذ تنتمي إلى تواصل تخيُّلي ومفترض بين الباث والمتلقي. فالمبدع يجرد من ذاته ذاتا تخيلية تمكنه من اختلاق سياق معين يضمن له التواصل والتفاعل وَبَثَّ الرسالة. كما أن المتلقي يقلب اللغة فيتخيل ذاتاً تبث له الرسالة وتعتبره مقصوداً بها، فيتفاعل وينجز حدث القراءة ثم يتخيل سياقاً معينا لهذا الحدث وذلك التفاعل.

إننا مع الأستاذ المتميز السيد علي آيت أوشان في سياق قضايا علمية دقيقة وعميقة لم يعد ممكنا معها استعمال الخطاب الفضفاض الذي يعني أكثر من شيء فلا يعني شيئاً. ومن هنا يأتي تميزه في هذه الدراسة.

يقول : "إن الاهتمام بالسياق... هو وليد علم الدلالة... وعلم الدلالة ممارسة علمية تهتم بدراسة المعنى اللغوي، وذلك لتمييزه عن المعنى كما تهتم به مجالات أخرى بعيدة عن الدرس اللغوي كالاشهار والسياسة والأدب والفلسفة وعلم النفس".

فنلاحظ :

1 - عدم الخلط بين مجالات متعددة، أراد لها بعض أصحاب الكلام الفضفاض أن تكون : علماً زائداً و(علوماً) تابعة له، سَلِسَة القياد مستلمة، فبعيدة عن مجالها.

2 - نتوقع إذن أن يكون هذا المفهوم العلمي المحض الذي هو السياق محدداً أساسيا للمعنى، فينتج عن ذلك مفاهيم مثل : السياق النفسي والاجتماعي والتخيلي. أي أنواع من الخطابات أو الرسائل، يختلف سياقها فتختلف محتوياتها، ثم تتمايز بشكل جذري، فتكون القضايا التي تثيرها مختلفة أيضا.

وقد كان الباحث حَذِراً في تناول مثل هذه القضايا، وحازماً في التمييز بينها، ثم صارماً ومتواضعاً في إثارة ما يستطيع إثارته من مشاكل لا تتجاوز مقدمتها نتائجها كما قد نلاحظ في كثير من الدراسات العربية المعاصرة.

ومما يدل على ذلك عنده أنه :

أ - حَدَّدَ دراسته للسياق في إطار اتجاه تداولي واحد هو تداولية أفعال الكلام.

ب - عمل ما أمكن على ربط الحمولة الدلالية للسياق بالتراث العربي والاسلامي، خاصة لدى علماء أصول الفقه؛ وذلك لتكون عملية المثاقفة التي يؤمن بها عملية حيوية ومنتجة.

ج - إن أهم ملمح لدى الأستاذ آيت أوشان في هذه الدراسة يكمن في العمل على ربط مفهوم السياق بالدراسات الأدبية ثم التوجه به توجها تطبيقيا لدراسة قصيدة مطولة لشاعر مغربي متميز هو المبدع بنسالم الدمناتي.

إن هذه الدراسة تستوجيب التأمل العميق والرصين، كما تقتضي تشجيع صاحبها على المضي في هذا الطريق الصعب والعويص الذي هو تحديث الثقافة العربية، وإفادتها من الثقافات العالمية بقصد خدمة أهدافها الكبرى الكامنة لا محالة في نهضتها ومنافستها للحضارات المعاصرة.

ولكل ذلك فإنني أنوه في هذا المقام بالباحث، وأتمنى له المزيد من بذل الجهد لإنجاز دراسات مشابهة لما فعله هنا.

والله ولي التوفيق.

الرباط في : 7-7-2000

مقدمة

لقد أصبحت الأبحاث العلمية تعير اهتماماً للمصطلح نظراً لدوره في بناء النظريات والمناهج، ولعل التحكم في المصطلح هو تحكم في المعرفة المراد إبلاغها والقدرة على ضبط أنساقها.

إن المصطلح في حاجة إلى إبراز ما يحمله من أفكار ومرجعيات سواءاً كانت مفردة أو متعددة، والتي يكونها عبر تشكله في حقول علمية وإنسانية واجتماعية متباينة.

ويقوم هذا الكتاب على تتبع مصطلح السياق في حقول معرفية وعلمية عديدة خاصة في اللسانيات والسيميائيات والتداوليات وتحليل الخطاب ونظرية التلقي قبل الاشتغال به في مجال التحليل الأدبي، وحين نفكك المصطلح بهذا الشكل فإننا نهدف إلى إغنائه وإعطائه إمكانيات أوسع للإفصاح عن جوهره وقدرته الانتاجية.

وقد حاولنا أن نبني لهذا المصطلح تاريخاً في معرفتنا العربية من خلال "علم أصول الفقه" حتى نكسبه بذلك قوته الإنتاجية مع الوعي بعدم السقوط في القراءة الارجاعية والتي تكتفي بتبرير معرفتنا والدفاع عنها.

وبينا من خلال فصول الكتاب أن مصطلح السياق تتقاطعه عدة دلالات ويملك قوة إنتاجية تجعله قادراً على القيام بدوره الاجرائي في المجال الأدبي، ولهذا كان اهتمامنا قائماً على تتبع كل التضاريس التي تشكله وتعطي إمكانية لاستيعابه وجعل القارئ الذي يتوجه إليه الخطاب

يستطيع أن يساهم في إنتاجه ويضع بذلك المصطلح في مكانه الطبيعي، وهذا من شأنه أن يخلق وعيا بأهمية الاشتغال بالمصطلح خاصة في مرحلة تأسيس لغة نقدية واصفة ذات أسس صلبة مقابل اللغة السطحية التي لا تعي ذاتها وتغرق في التفريع والتفكيك بشكل قد لا يجدي.

إن التدقيق في المصطلح بهذا الشكل العلمي والمعرفي والمنهجي لازالة التباسه يبدو أمراً ضروريا لاستيعابه وإدراك المنبت الذي تشكل فيه وكيفية تداوله بهذه الصورة أو تلك والامساك بالمنطق المنظم له.

ولقد أدركت منذ شروعي في هذه الدراسة أن تجريب المصطلح مرحلة ضرورية لابد منها لاختبار مدى صلاحيته وفعاليته لذلك رسمت له أفقاً محدداً يمكنه من الإفصاح عن حمولاته النظرية ويسمح أيضا بجعله أداة إجرائية تعبر عن قدرتها خاصة في مجال تحليل النص الأدبي حيث يبدو المصطلح محملا ببعده الوظيفي.

وقد ترتب عن هذا التوجه على المستوى المنهجي مايلي:

- محاولة رصد مصطلح السياق في علاقته بمصطلحات عديدة تتداخل معه نظريا وإجرائيا.

- الوقوف على بعض الأصول المعرفية المنظمة له وتتبعها.

- تعيين العلاقة القائمة بين مصطلح السياق والموضوع المدروس: الشعر.

إن السياق ضروري لتحقيق التفاعل بين الذات والموضوع، ورغم اتساعه ليشمل كل الأطراف المكونة لعملية التواصل، وقدرته الاجرائية على الفهم والتأويل في المجال الأدبي فإنه يبقى مصطلحا يتخلله العديد من التصنيفات لذلك فالقراءة التي قدمناها في هذا الكتاب للنص الشعري تبقى مجرد مشروع قراءة من بين مشاريع قرائية ممكنة لأن المستويات القرائية التي حددناها يمكن النظر إليها من زوايا أخرى.

والنتيجة التي يمكن أن نخلص إليها من خلال هذه المقدمة أن آفاق البحث تظل مفتوحة في مجال البحث المصطلحي، لأنه بقدر ما ندقق مفاهيمنا ومصطلحاتنا فإننا نستطيع تأطير موضوعنا بأدوات نظرية ومنهجية متماسكة ونتجنب التلقائية والاعتباطية.

«والله الموفق والمعين»

مـدخــــل

إن الاهتمام بالسياق (le contexte) والبحث فيه والتنظير له كأداة إجرائية في الدرس اللساني الحديث هو وليد علم الدلالة اللغوي (La Sémantique linguistique) وهو علم حديث النشأة في الغرب بالمقارنة مع باقي مستويات الدرس اللساني الأخرى كالأصوات، والمعجم والتركيب إذ لم يستطع أن يفرض نفسه إلا في السنوات الأخيرة حيث تبين أنه لا يمكن لباقي مستويات الدرس اللغوي الأخرى الاستغناء عنه. وعلم الدلالة كما يعرفه (لاينز Lyons) هو ممارسة علمية تهتم بدراسة المعنى، ثم خصصه، فاستعمل مصطلح المعنى اللغوي[1] وذلك لتمييزه عن المعنى كما تهتم به مجالات أخرى بعيدة عن الدرس اللغوي كالإشهار والسياسة والأدب والفلسفة وعلم النفس.

ولقد ميزت الدراسة الدلالية بين أنواع عديدة من المعنى، واعتبرتها أساسية في الوصف الدلالي، منها المعنى التقريري، والمعنى الإيحائي والمعنى الإجرائي والمعنى الماهوي . . . كما أنها اهتمت بالسياق باعتباره أداة إجرائية تلعب دورا مركزيا في تحديد المعنى، إذ يكاد يتفق معظم الدلاليين أن للكلمة معنى قاعديا (sens de base) ومعنى سياقيا (sens contextuelle) وبذلك يظهر أن أي اقتراب من قضية المعنى يحث على معرفة السياق.

---

(1) Jhon Lyons : Elément de sémantique, traduit par J. Duran. Larousse, 1978 p : 9

ويأخذ مصطلح السياق مسارا أكثر بعدا مع الدراسات التداولية (pragmatique) والتي عمق أصحابها مسالة السياق اعتمادا على تجاوز الإطار اللغوي المحض إلى السياق الاجتماعي والنفسي والثقافي، والتداولية كما حددها (رودلف كارناب Rudolf Carnap) هي قاعدة اللسانيات[2] وتسعى أساسا للإجابة عن أسئلة المتكلم وعلاقته بالمتلقي، ودراسة اللغة في علاقاتها بالعالم الخارجي أي علاقاتها بظروف إنتاجها، وهي مبحث حديث النشأة بحيث لا تشكل اتجاها وحيدا متجانسا بل إن أهم ما يلاحظه المتتبع لتطور البحث التداولي، هو اختلاف المنطلقات والتصورات، وقد نتج عن ذلك تعدد الاتجاهات التداولية «التداوليات»، لذا فإن الحديث عن الوصف التداولي يجب أن يكون بصيغة الجمع لا بصيغة المفرد، وإذا أخذنا فقط تداولية اللسانيين فيمكن أن نرجعها إلى أربعة اتجاهات:

- تداولية أفعال الكلام.
- التداولية الإشاريـــة.
- التداولية الحجاجيـة.
- التداولية الوظيفيـــة.

وقد اقتصرنا في هذه الدراسة على تداولية أفعال الكلام (Les actes de langage) نظرا لحضورها العميق والقوي في الدرس التداولي المعاصر، فقد ذهب (هانسن / Hansson) (1974)، إلى تصنيفها في إطار تداولية الدرجة الثالثة بحكم تشغيلها العميق والأوسع للسياق، ثم لتأثيرها في بعض الاتجاهات النقدية و اللسانية، وأخص بالذكر (جمالية التلقي) عند (إيزر / Iser) و«علم النص» مع (فان ديك).

إن المجالات التي يفرضها السياق عديدة وتتوزع عبر فضاءات معرفية

(2) Françoise Armengaud : La pragmatique. Que-Sais-je. 1èr éd. 1985, p : 3

كثيرة، منها ما هو مرتبط بالمتكلم والمتلقي وشروط الإنتاج اللغوي والزمان والمكان... وغيرها، وأمام تعذر الإحاطة بمجموع هذه العلاقات حصرنا اهتمامنا في بعض الجوانب، فانتهينا إلى التعامل مع التداولية وعلم النص، وتحليل الخطاب، ثم جمالية التلقي معتمدين على نماذج محددة، مع الإشارة إلى إسهامات الفكر العربي متمثلا في «علم أصول الفقه» من خلال البحث اللغوي حتى يتأتى لنا تسييج الموضوع. وقد اخترنا الاشتغال على السياق لاعتبارات عديدة منها:

1 - كون ثقافتنا العربية تستعمل العديد من المفاهيم والمصطلحات استعمالات عامة دون أدنى تدقيق، وفي هذا الإطار حاولنا أن نساهم في تشكيل مجموعة من الأسس التي ينبني عليها مصطلح السياق في الدرس الدلالي والتداولي ... والتي لا يمكن أن نغفلها متى تعرضنا لمسألة السياق بكل تعقيداته ومظاهره.

2 - محاولة الاستفادة من الدرس اللساني الحديث باعتباره يشكل منعطفا أساسيا في مسار الثقافة الحديثة، ومن ثم حاولنا استدعاء بعض نظرياته المرتبطة بالسياق ومحاولة تقديمها لعلنا نملأ المسافة الفاصلة نظريا بين الخطابين العربي والغربي.

3 - من الصعب علينا أن نأخذ مصطلحا ما، من ثقافة حديثة مغايرة لثقافتنا و نحاول أن نشكل له بناء في معرفتنا العربية، ونحن لم نستعمل ذلك المصطلح بنفس الحمولة التي يستعمله بها الآخر على الأقل نظريا إلا أن هذا لا يعني عدم إيماننا بالمثاقفة والتواصل مع الآخر وإقرارنا بالانغلاق، والدليل على ذلك أننا حاولنا أن نقدم التصور العربي «للسياق» انطلاقا من «علم أصول الفقه» وقد توصلنا إلى أنه يمكن الحديث عن «نظرية سياقية عربية» تحتاج فقط إلى من يشكلها و يعيد بناءها اعتمادا على فعل المثاقفة.

4 – إن للأدب خصوصياته منها ما يرتبط ببنياته الداخلية، والتي استنفذها الشكلانيون والبنيويون بحثا، ومنها ما يرتبط بشروط إنتاجه وتلقيه، وعلاقته بالزمان والمكان، ومن هذا المنطلق يحضر السياق بعمق كأداة إجرائية يمكنها أن توسع من دائرة فهم النص الأدبي وتأويله وإخراجه إلى أفق أوسع و تكثف أسئلة الكتابة وشروط التواصل وبناء عليه تضمن انسجامه والتواصل معه بحيث لا نبقى في حدود خلق علاقة محددة مع الموضوع بل نتجاوز ذلك إلى الرغبة العميقة في استكناه كل الأطراف المساهمة في عملية الإبداع والتلقي.

5 – سيادة تصور بسيط و قاصر لمصطلح السياق، أي التصور الذي يحدده في إطار لغوي محض، والواقع أن السياق أداة إجرائية فعالة لا يمكن الاستغناء عنه إذ يلعب دورا أساسيا في تحديد المعنى وفهم الملفوظات خاصة إذا أخذناه بمعناه الواسع حيث يستدعي ما هو اجتماعي وتاريخي وثقافي ونفسي.

هذه العوامل وجهت اختيارنا «للسياق» كأساس نظري من خلال البحث اللساني خاصة، وكأداة إجرائية يمكن الاعتماد عليها لفهم النص الشعري وتأويله ، وكلها عوامل تبرز رغبتنا في خلق حوار مفتوح مع مجموعة من النظريات الحديثة، وهو حوار أردنا له أن يتجاوزها إلى مستوى الممارسة النصية، وقد اخترنا لها شاعرا مغربيا معاصرا هو «بنسالم الدمناتي»[3] من خلال نصه الشعري «الطحلب الآخر» الذي وقع عليه اختيارنا دون أدنى انتقاء لكي لا نُقَوِّل النص ما لا يقوله، ولعل الشعر المغربي يفتقر إلى مثل هذه الدراسات النقدية التي نسعى من خلالها

(3) بنسالم الدمناتي من الشعراء الذين ساهموا في إرصاد دعائم القصيدة المغربية المعاصرة إلى جانب أحمد المجاطي ومحمد السرغيني وعبد الكريم الطبال ومحمد الميموني (. . .) (انظر محمد بنيس : ظاهرة الشعر المعاصر بالمغرب، مقاربة بنيوية تكوينية، دار التنوير بيروت، الطبعة 2 و1975).

في الواقع إلى تجاوز الفهم التقليدي للشعر والذي يحصره في الوزن والقافية والمعجم والتركيب، تحدونا رغبة صادقة في تحقيق إبدال في القراءة مستثمرين الحمولة الدينامية التي يقدمها مصطلح السياق.

ويتميز الإنتاج الشعري للشاعر المغربي «بنسالم الدمناتي» بالرغم من قلة الدراسات النقدية التي تعرضت له شأنه في ذلك شأن معظم الشعراء المغاربة بالكثافة والعمق في بناء الصورة مما يغري بالمغامرة من أجل مساءلته إلا أنه لا يفوتنا أن نشير ونحن نركب جزءا من هذه المغامرة أن محاولتنا لتسييج أحد نصوصه اعتمادا على مصطلح السياق لا يعني أننا قد أحطنا بجميع ما يطرحه نص «الطحلب الآخر» وأمسكنا بكل مكوناته، فما قدمناه يبقى مجرد لحظة فتحنا من خلالها حوارا مع هذا الشاعر وأنصتنا إليه، ولعل الإنصات يدشن الخطوة الأولى لتحقيق اللقاء الجدي مع المعرفة والمشاركة في الاحتراق بأسئلتها.

وقد اخترنا عنوانا لهذه الدراسة : **السياق والنص الشعري : من البنية إلى القراءة** نظرا لأن فئة من المنظرين لمصطلح السياق حصروه في إطار العلاقات اللغوية «البنية الداخلية» الناتجة عن التأليف بين الوحدات المعجمية التركيبية. ومع تطور الدرس اللساني خاصة التداولي منه ونحته لمصطلحات جديدة كمصطلح الملفوظ والخطاب والفعل (L'acte)... أخذ البحث في السياق مسارا أكثر عمقا، ليهتم بكل الشروط المتحكمة في عملية التلقي.

وتبعا لذلك قسمنا الدراسة كما يلي :

1 - القسم الأول :

وعالجنا فيه جانبين :

1 – مظاهر السياق من خلال القـاموس :

ما دام البحث يتمحور حول السياق فقد ارتأينا كخطوة أولى تقليص المسافة بيننا وبينه من خلال تتبعه في بعض القواميس العربية والغربية خاصة المتخصصة منها كاستراتيجية تحليلية، من أجل الوقوف على دلالاته الأولى دون أن نتدخل في ذلك ،اللهم الإشارة فقط إلى ضعف القاموس العربي وعدم وعي واضعيه بقيمة المصطلح كأداة نظرية وإجرائية تحمل معها معرفة، إذ غالبا ما يتم إهمال المصطلح والتضييق من أفق اشتغاله.

2 – علاقة السياق بالمعنى والتركيب والمرجع :

وهي مصطلحات لا مفر لكل متتبع لمسألة السياق في الدرس اللساني الحديث من الوقوف عليها وإبراز علاقاتها بالسياق، نظرا لما أثارته من إشكالات عديدة في مختلف مستويات الدرس اللساني خاصة : المعجمي والتركيبي والدلالي، وبكل اتجاهاته، سواء كانت بنيوية أو توليدية أو تأليفية. .

II – الـقســم الثاني :

فصلت فيه القول من خلال تتبع العديد من النظريات الحديثة خاصة التي بحثت في مسألة السياق واسترشدت في ذلك بما هو محقق من تحولات ابستمولوجية في الثقافة الغربية، وقسمت هذا القسم إلى قسمين :

- السياق عند الغرب من خلال :
- التداوليــــة.
- علـم النــص.
- تحليل الخطـاب.

- جمالية التلقـي .

- السياق عند العرب من خلال :

علم أصول الفقه .

III - القسـم الثـالث :

وهو القسم الأخير من الدراسة ويرتبط بمجال التطبيق ومحاولة إخراج مصطلح «السياق» من إطاره النظري الضيق إلى أفق أرحب وأوسع، وإن كان البعض يذهب إلى اعتبار النص الشعري مختلف في لغته عن باقي المستويات اللغوية الأخرى، فهو يملك من الخصوصيات ما يميز بنيته إيقاعا وتركيبا.

وإذا كان لابد من استراتيجية تحليلية، فإننا قد انطلقنا في مساءلتنا لنص (**الطحلب الآخر**) والذي هو محط عملية التحليل من مجموعة فرضيات أو أسئلة سعينا إلى الإجابة عنها، وهي كالتالي :

- **مـن هـو الـمتكلـم في النص؟**
- **و مـن هـو الـمتلقـــي ؟**
- **و ما هـو موضـوع النـص ؟**
- **و مـا هـو زمـانـــه ؟**
- **و ما هو المكان الذي يؤطره ؟**

إن الإجابة عن هذه الأسئلة يضعنا في عمق ما أسماه (فان ديك) النص كفعل كلامي، مستلهما في ذلك نظرية أفعال الكلام لكل من (أوستين) و(سيرل)، حيث الجواب عليها يفرض علينا تجاوز السياق بمفهومه الضيق إلى السياق النفسي والاجتماعي والثقافي والتخييلي .

الفصل الأول

مظاهر السياق من خلال القاموس

القسم الأول

نسعى في هذا القسم من الدراسة إلى الوقوف عند مختلف مظاهر لفظ السياق من خلال بعض القواميس، منها ما هو عربي وما هو غربي، ويمكن أن نقسمها إلى قسمين :

1 - قواميس عامة عالجت لفظ السياق معالجة عامة انطلاقا من عدم تقيدها باستعمال محدد له.

2 - قواميس متخصصة جعلت من لفظ السياق مصطلحا(*) محددا بدلالات دقيقة، خاصة وأن هذه القواميس ترتبط أساسا بحقل اللسانيات والسيميائيات لذا فإنها عالجت مصطلح السياق كما هو مشغل و متداول في الدرس اللساني والسيميائي بنوع من الوعي النظري والمنهجي.

والملاحظ -كما سنبين- أن قواميسنا العربية خاصة القديمة منها لم تهتم بالمصطلحات والألفاظ المتخصصة بحجة أنها ألفاظ محدثة، وأن البعض كان يعتقد أن المكان المناسب لها هو كتب المفردات الخاصة بالعلوم والفنون وليس قواميس اللغة العامة، ويكتسي هذا القسم من الدراسة قيمته لأن كل قراءة مقبولة محكومة بشروط، أولها محاولة فهم الكلمات فهما تاريخيا بعد ذلك يحقق لنا التأويل، أما التأويل المبني على الجهل أو إلغاء

(*) يمتاز المصطلح ببعض الخصوصيات التي تميزه عن غيره من ألفاظ اللغة، منها أنه :
- لا يعمر كثيرا بالقياس إلى الألفاظ اللغوية العادية.
- طبيعته محددة الانتشار نظرا لدلالاته على شيء معين بين فئة اجتماعية أو ثقافية محددة (فئة من العلماء مثلا . . .) أما عند التخاطب مع باقي فئات المجتمع فلا بد من استخدام اللغة المشتركة.
- غالبا ما يكون وسيلة تدخل عن طريقها كلمات أجنبية إلى اللغة الأم.

أوليات القراءة فهو مردود . . . إضافة إلى أنه في غياب استكشاف المفهوم القاموسي تعم الفوضى الفكرية[1] .

● السياق من خلال القاموس العربي :

سنعمل على مقاربة لفظ السياق في القاموس العربي من خلال ثلاثة قواميس لكل منها خصوصياته بهدف تسييج لفظ السياق وتحديد مختلف دلالاته، وهذه القواميس هي :

● لسان العرب : لإبن منظور، ويمثل المدونة اللغوية العربية القديمة التي قامت عليها المعجمية العربية.

● أساس البلاغة : لأبي القاسم محمود بن عمر الزمخشري، وهو القاموس العربي الوحيد الذي اهتم بالاستعمال المجازي للألفاظ.

● المعجم الوسيط : لمجموعة من الباحثين وهو من إنجازات مجمع اللغة العربية بالقاهرة، ويهدف هذا القاموس إلى تكسير الأسس التقليدية للمعجمية العربية، بدءا بمعيار الزمان والمكان والصحة.

وفيما يلي عرض للفظ «السياق» كما قدمته هذه القواميس :

- لسان العرب : لإبن منظور[2] :

أورد ابن منظور لفظ السياق في مادة «سَوَقَ» يقول : السوق : معروف. ساق الإبل وغيرها يسوقها سوقا وسياقا، وهو سائق وسوّاق، . . . وقد انساقت وتساوقت الإبل تساوقا إذا تتابعت. . . وساق إليها الصداق والمهر سياقا وأساقه، وإن كان دراهم أو دنانير، لأن أصل الصّداق عند العرب الإبل، وهي التي تساق، فاستعمل ذلك في الدرهم والدينار وغيرهما. وساق فلان من امرأته أي أعطاها مهرها. والسياق :

---

(1) عبد الله العروي : المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية، "المنهجية بين الإبداع والأتباع"، دار توبقال، الطبعة 1 . 1986، ص 12، 13 .

(2) ابن منظور : لسان العرب، دار صادر، بيروت، ج : 10، ص : 166، 170 .

المهر . . . قيل للمهر سوق لأن العرب كانوا إذا تزوجوا ساقوا الإبل والغنم مهرا لأنها كانت الغالب على أموالهم، وضع السوق موضع المهر وإن لم يكن إبلا وغنما . . . وأساقه إبلا : أعطاه إياها يسوقها . . .

وساق بنفسه سياقا : نزع بها عند الموت ،نقول : رأيت فلانا يسوق سُووُقا أي ينزع نزعا عند الموت . . . ويقال فلان في السياق أي في النزع . . . والسياق نزع الروح . . . وأصله سواق، فقلبت الواو ياء لكسرة السين، وهما مصدران من ساق يسوق . . .

هكذا يتبين من خلال المادة اللغوية التي قدمها ابن منظور أن السياق جاء بمعنى : قاد - أعطى - نزع.

- أساس البلاغة : للزمخشري[3] :

وردت عند الزمخشري إشارة إلى «السياق» في مادة «سوق»، يقول : ومن المجاز: ساق الله إليه خيرا. وساق إليها المهر. وساقت الريح السحاب . . والمحتضر يسوق سياقا. وفلان في ساقه العكس، في آخره وهو جمع سائق كقادة في قائد. وهو يساوقه ويقاوده، وتساوقت الإبل : تتابعت . وهو يسوق الحديث أحسن سياق، و «إليك يساق الحديث» . وهذا الكلام مساقة إلى كذا، وجئتك بالحديث على سوقه: على سرده . . . »

ونلاحظ من خلال ما قدمه الزمخشري انتباهه إلى دلالة أخرى للفظ السياق أوردها في الاستعمال المجازي للفظ حيث ربط بين لفظ السياق والحديث (الاستعمال).

● المعجم الوسيط : تأليف جماعة من الباحثين[4] :

(1) الزمخشري : أساس البلاغة، دار الفكر، ص : 314.

(4) د. ابراهيم أنيس، د. عبد الحليم منتصر، د. عطية الصوالحي. د. محمد خلف الله أحمد : المعجم الوسيط. دار الفكر، ج 1، ص : 465.

(السياق) : المهر. وسياق الكلام. تتابعه وأسلوبه الذي يجري عليه.
والسياق : النزع. يقال : هو في السياق : الاحتضار.

إن مختلف الشروح التي أوردها (المعجم الوسيط) للفظ «السياق» لا تخرج عما قدمه (لسان العرب) و(أساس البلاغة)، وهي شروح لم يرد فيها أي تحديد للسياق كما نفهمه اليوم أو نحاول أخذه عن العديد من الدراسات بالرغم أنه من المفروض في القاموس أن يواكب ما يطرأ على اللغة من تغير نتيجة تغير بنيات المجتمع، و يستجيب للتطور الحضاري، فهو صورة للمجتمع بكل تركيباته.

إن القاموس العربي لا يواكب التحول الذي يعرفه المجتمع العربي، وطبيعة المعارف السائدة الآن خاصة على مستوى المصطلح، إلى درجة يمكن القول معها إن القاموس العربي قديمه وحديثه يعاني من فقر مصطلحي، فغالبا ما يتم إهمال المصطلح أو التضييق من أفق اشتغاله (فالمعجم الوسيط) مثلا رغم ما يدعيه واضعوه من تجديد ومحالة لتغيير الأسس التي اعتمدتها الدراسات المعجمية العربية السابقة خاصة ما يتعلق بتجاوز البنية الزمانية والمكانية التي قيدت القواميس العربية طيلة قرون عديدة فإنه لا يقدم لنا شيئا جديدا بخصوص لفظ (السياق) كمصطلح، والإشارات الواردة فيه لا تخرج في عمومها عما أورده ابن منظور في (لسان العرب)، لذا فإن حضارتنا تعاني من نقص في القواميس وفقر في المعارف المتداولة فيها(*).

(*) إن المطلع على القواميس العربية القديمة المتخصصة في بعض المصطلحات لا يجد ذكرا للفظ السياق، انظر مثلا :

- الكليات (معجم في المصطلحات والفروق اللغوية) : لأبي البقاء أيوب بن موسى الحسيني.
- التعريفات : للشريف بن علي بن محمد الجرجاني.
- كشاف اصطلاحات الفنون : لمحمد علي بن علي التهاوني.

السياق من خلال القواميس الغربية :

* **القواميس العامة :**

أ) قاموس الجيب (La Rousse de Poche)[5]

حدد لفظ السياق في هذا القاموس كما يلي :

السياق : هو ما يصاحب، يسبق أو يتبع نصا، للتوضيح.

ب) روبير الصغير من تأليف : آلان ري ودي بوف[6]

حاول واضعاه أن يحددا السياق اعتمادا على تعريفين :

* **السياق :**

1 - مجموع نص يحيط بعنصر لغوي (كلمة، جملة، جزء من ملفوظ) ويتعلق بمعناها، وقيمتها.

2 - مجموع الظروف التي في إطارها يندرج فعل ما. فهناك السياق السيكولوجي للتصرف، والسياق السياسي، العائلي، . . .

* **القواميس المتخصصة :**

- قاموس السيميائيات لغريماس وكورتيس[7] :

أهم ما ورد في هذا القاموس المتخصص ما يلي : السياق : هو مجموع النصوص التي تسبق و/أو تواكب وحدة تركيبية معينة وتتعلق بها الدلالة (La Signification) حيث يمكن له أن يكون صريحا (Explicite) أو لسانيا، و يمكن أن يكون ضمنيا (Implicite) ويتميز في هذه الحالة بأنه

(5) Larousse de poche, Librairie Larousse, 1954, p 81

(6) A. Rey et j. Redebove : le petit Robert 1, 1989. p : 378.

(7) A. j Grimas, j. courtes : Sémiotique, dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Hachette université, P.P : 66.67

سياق خارج لساني (Extra-Linguistique) أو مقامي (Situationnel)، ويمكن للسياق الضمني أن يشتغل بقصد التأويل الدلالي (L'interprétation Sémantique) للأسباب الآتية :

أ - إذا كان الأمر يتعلق بلغة طبيعية حية، منتجة لنص غير محدود، فيمكن دائما أن نجعل المقام صريحا (هلمسيف).

ب - إن العناصر الضمنية في نص لغوي قابلة لأن تعاد إلى أصلها عن طريق تماثل (Homologation) هذا النص مع نص غير لساني والذي ينبثق عن سيمياء العالم الطبيعي.

2 - إن جاكبسون في الترسمة التي حدد بها الوظائف التواصلية وضع السياق كعنصر من أهم العناصر التي تشكل النشاط اللغوي وماثله (بالمرجع)، «إنها الوظيفة المرجعية للغة»، والتي تعتبر ضرورية في توضيح الإرسالية، سواء كان السياق منطوقا أو قابلا للنطق.

3 - وكمستوى ثالث يطرح الباحثان مسألة : (الدليلات السياقية) (Sèmes Contextuels) أو الأقسام الدلالية (Classèmes)، وهي الدليلات أو المجموعات الدليلية التي تتواتر داخل وحدة ما وداخل سياقها، بالتالي تتشكل الدليلات السياقية جزءا من تركيبة وحدة دلالية كبرى (Sémème).

القاموس الموسوعي لعلوم اللغة لكل من : ديكرو وتودورف (8)

يعالج الباحثان في القسم المعنون «بمقام الخطاب» مجموعة من القضايا التي تتعلق بالسياق والمقام. فمقام الخطاب هو مجموع الملابسات التي في إطارها يتحدد فعل التلفظ (L'acte d'énonciation) سواء كان مكتوبا أو شفويا، وينبغي أن يفهم من هذا على حد تعبير ديكرو :

- المحيط المادي والاجتماعي الذي يأخذ فيه هذا الفعل مكانه.

---

(8) O. Docrot/T.Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage, Ed Seuil, 1972, pp 417, 422

- الصورة المتبادلة بين المتخاطبين.

- هويتهم.

- الفكرة التي يحملها كل واحد عن الآخر.

- الأحداث التي تسبق فعل التلفظ.

ونسمي أحيانا هذه الملابسات بالسياق، ويفضل (ديكرو) ربط مصطلح السياق بما هو لغوي محض أي بالوحدات الصوتية والمعجمية التي تسبق أو تلحق الملفوظ خاصة وبتعبير أكثر دقة المركبات (Les syntagmes) التي تنتمي إليها.

ويشير إلى أن الكثير من أفعال التلفظ أو (كلها)، لا يمكن تأويلها إذا كنا نعرف فقط الملفوظ المستعمل، ونجهل كل شيء عن المقام، ذلك أننا لن نستطيع فقط معرفة دوافع وآثار الملفوظ بل لن يكون بإمكاننا أن نحدد بدقة القيمة الجوهرية للملفوظ ولا حتى المعلومات التي يمررها هذا الأخير. ويثبت (ديكرو) قيمة المقام والمعلومات التي يوصلها، وتكمن أهمية معرفة المقام في كونه ضروريا لتحديد :

أ)- مرجع التعابير المستعملة، كالإشاريات : (Les Déictiques) (أنا-أنت-هذا- هنا-الآن. . .) ويصدق أيضا على العديد من أسماء الأعلام : «زيد» هذا الشخص من وسطنا أو تحدثنا عنه، ويسمى «زيدا»، وعلى العديد من التعابير المسبوقة بأداة التعريف (الحارس : الشخص الذي يحرس العمارة التي تحدثنا عنها).

ب)- الاختيار بين التأويلات المختلفة لملفوظ غامض.

ج)- طبيعة الفعل الكلامي المنجز بحكم أن طبيعته التلفظية أو قيمته (illocutoire) قد تختلف عن طبيعته الواقعية أو المسموعة، مثلا فالملفوظ

«سنذهب إلى باريس غدا» قد يفهم على أنه (وعد أو خبر أو أمر) وذلك بحسب العلاقات الموجودة بين المتكلمين والقيمة المرتبطة بالذهاب إلى باريس.

د)- الخاصية العادية أو غير العادية للملفوظ : فملفوظ ما يمكنه أن يكون عاديا في مقامات معينة، ومتغيرا في أخرى، وتبعا لذلك يأخذ قيمة خاصة.

واعتمادا على ما تقدم يبدو أنه من الصعب حسب (ديكرو) القول بأن المقام لا يدخل ضمن اهتمام اللساني حتى ولو ادعينا أن موضوع اللساني هو الملفوظات في ذاتها وليس أفعال التلفظ (Les actes d'énonciation) بالخصوص لأنه من الصعب علينا فعلا أن نحدد ملفوظا دون أن نقول كيف يمكنه أن يتخذ تمظهرات مختلفة في المقامات التي يمكن أن يستعمل فيها.

انطلاقا من هذا الطرح يلح (ديكرو) على المقام باعتباره عنصرا مهما في تحديد المعنى، لذا في الواقع يجب ألا نغفل مختلف الأنماط المقامية التي يستعمل فيها الملفوظ.

*** جون دي بوا : قاموس اللسانيات [9]**

يحدد السياق كما يلي :

1 - المحيط (L'environnement)، أي الوحدات التي تسبق أو تلحق وحدة محددة، ويسمى بالسياق أو السياق الشفوي.

2 - مجموع الشروط الاجتماعية التي يمكن أن تأخذ بعين الاعتبار لدراسة العلاقات القائمة بين السلوك الاجتماعي والسلوك اللساني، وغالبا ما تحدد السياق : بالسياق الاجتماعي لاستعمال اللغة ونقول أيضا المقام، وهو مجموع المعطيات المشتركة بين المتكلم والمستمع في مقام ثقافي ونفسي، للتجارب ومعارف كل منهما.

---

(9) Jean Dubois : Dictionnaire de Linguistique. Librairie Larrousse. 1973. P.P : 120-121.

3 - يقوم أصحاب الأنحاء المركبية باستخدام كبير لمفهوم السياق، ويمكن أن نقسمهم إلى أنحاء مستقلة عن السياق، وأنحاء مرتبطة بالسياق، هكذا فإن قاعدة إعادة الكتابة : س ←― س + و + س (س يمكن أن تكتب س + و + س) هذه قاعدة يمكن أن تطبق بدون أية حدود سياقية، يكفي فقط أن تظهر (س) لكي تطبق القاعدة، فهي قاعدة مستقلة عن السياق وبالمقابل فإن (س) إذا لم يكن ممكنا أن تعاد كتابتها : س + و+ س إلا إذا كانت مسبوقة أو لاحقة ببعض الوحدات - أو العكس - نقول بأن القاعدة مستقلة عن السياق ونحصل على : س ←― س + و+ س في سياق x + . . . + y، أي أن س يمكن إعادة كتابتها : س + و+ س إذا كانت س مسبوقة ب x ومتبوعة ب y يجب أن يكون عندئذ الملفوظ في شكل : x س y لكي تطبق القاعدة ذلك أنها لا تطبق إذا كان عند x س y أو y س y.

انطلاقا مما تقدم يتضح أن القواميس الغربية خاصة المتخصصة منها قد تعاملت مع السياق كمصطلح وهي تعي حمولته المعرفية خاصة في الدرس اللساني والسيميائي، فقد عرضت له عن وعي وعرفت به وشرحته مستجلية حمولته المعرفية مغنية بذلك المسار العلمي لهذا المصطلح لأن التحكم في المصطلح هو في الواقع تحكم في المعرفة المراد إيصالها والقدرة على ضبط مختلف أنساقها.

وللسياق كما يتبين علاقة بمجموعة من المفاهيم الأخرى خاصة المعنى والتركيب والمرجع وهذا ما سنعرض له كخطوة أولى لضبط خصوصيات مصطلح السياق.

- السياق والمعنى :

إن المعنى هو مجموعة من الملامح المفهومية والتي بفضل بنيتها الخاصة يتشكل معنى العلامة[1] ؛ وتأتي علاقة السياق بالمعنى من كون العديد من الملفوظات لا يمكن تحديد معناها بدقة إلا بمعرفة سياقها الذي وردت فيه، فعادة ما يسأل شخص عن معنى كلمة فيضطر إلى التساؤل عن سياقها الذي وردت فيه. وفي هذا الصدد يقول بيير غيرو : « إن الغموض الذي يلف العلامة المتعددة الدلالات يزول حين توضع في سياقها» [2].

وسنحاول أن نقف عند بعض مستويات المعنى (Le Sens) كما هي محددة في الدرس اللساني المعاصر :

1 - قسم كلاوس (Klaus) المعنى إلى قسمين :

المعنى الماهوي (Le sens eidétique) والمعنى الإجرائي (le sens opératoire) ويرى أنه من الضروري التعرض إلى الفرق بين المعنى الإجرائي للعلامة أو التأليفية من العلامات (Eidos = idée, concept) لإبراز على الأقل كيف أن هذا يمكن نظريا من معالجة المشاكل اللسانية - وكذا مشاكل الدلالة - باستعمال الحاسوبات الإليكترونية.

إن المعنى الإجرائي للعلامة يلخص علاقات وقواعد تركيبية موجودة في لغة ما ويثبت الكيفية التي تتألف بها العلامات في التعبير، وكيف أن هذه التعابير يمكن أن تتغير.

أما المعنى الماهوي، فيلخص القواعد الدلالية والتحديدات التي

---

(1) H.E. Breakle : Sémantique; Librairie Armand colin, Paris, 1974, p : 43.

(2) بيير غيرو. السيمياء، سلسلة زني علما، الطبعة 1، السنة : 1984. ص : 39.

الفصل الثاني

- السياق والمعنى
- السياق والتركيب
- السياق والمرجع

تؤسس العلاقات الموجودة في لغة ما بين العلامات والمفاهيم والأشياء الممثلة بهذه المفاهيم، هكذا فالمعنى الإجرائي للعلامة مرتبط بالتركيب، والمعنى الماهوي بالدلالة (la sémantique)، وتبعا لذلك، نقول بأن للعلامة معنى ماهوي إذا كنا نعرف ماذا تمثل هذه العلامة أو على الأقل حين نعرف بأنها تمثل شيئا، فلفظ «كوكب» مثلا له معنى ماهوي في إطار نظام علامات علم الفلك(Astronomie)، لأننا نعلم بوجود شيء مادي أي جسم سماوي تمثله هذه الكلمة، على العكس من ذلك إذا كنا لا نعرف هذا الشيء، ولكن فقط كيف نجعله إجرائيا مع العلامة.

2 – المعنى التعييني والمعنى التضميني :

3 – التعيين :

نقصد بالمعنى التعييني (Le sens dénotatif)، وقد استعمله البعض بمعنى (La réference) أي (المرجعية) ويقصد بالقيمة التعيينية لوحدة معجمية العلاقة القائمة بين هذه الوحدة المعجمية، وما هو خارج عن النظام اللغوي من أشخاص وأماكن وخصائص وسيرورات ونشاطات.

والواقع أن مسألة (المرجعية) تختص بالملفوظات، وتنطبق على العبارات المرتبطة بالسياق، لا على الوحدات المعجمية (Lexèmes)، فهو يشكل العلاقة التي تنطبق على الوحدات المعجمية وتقع خارج السياقات التلفظية (contextes d'enonciation) إلا أن هذا لا يعني عدم وجود أية علاقة بين التعيين والمرجعية، إذ إنهما يرتبطان بما يسمى ببديهية الوجود (Axiome d'éxistence)، فكل ما تعينه وحدة معجمية يجب أن يكون موجودا، كما أنه توجد بينهما علاقة من جهة اكتساب ملكة اللغة.

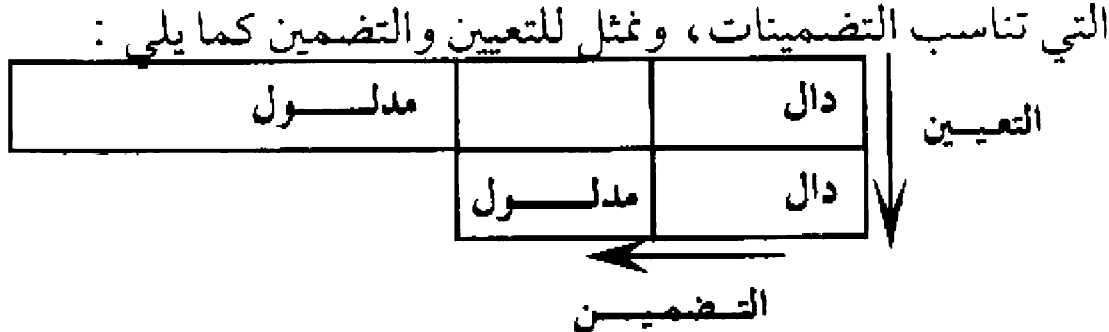
ويحدد «جورج مونان» التعيين كما يلي : «استعمال التعيين» في علم

الدلالة، وهو في غالب الأحيان قريب من الاستعمال الذي نجده عند أهل المنطق : فهم يحددونه على أنه العلاقة التي تجمع بين شكل لغوي وطبقة من الأشياء موجودة في العالم المحسوس»(3).

ب - التضمين :

يمثل التضمين "Connotation" مختلف الاستعمالات التحويلية للكلمة أو العلامة هذه التحويلات تنقل الكلمة من مستوى الدرجة الأولى (التعيين) إلى مستوى الدرجة الثانية (التضمين) حيث يتوسع فيها المدلول متحررا من كل تقييد معجمي.

ويذهب (جون مولينو) إلى اعتبار أن هناك علاقة في الواقع بين عدة مضامين تصلح للتضمين، وإذا حاولنا أن نصنف وقائع التضمين تصنيفا مقتضبا، نستطيع أن نميز بين التضمينات السوسيولوجية، والتضمينات النفسية . . . ويعتبر السياق عنصرا أساسيا لأنه هو الذي يخلق الحالات التي تناسب التضمينات، ونمثل للتعيين والتضمين كما يلي :



ويرى «بارت»(4) أن كلا من التعيين والتضمين يتكون من ثلاثة عناصر :

1 - الدال.

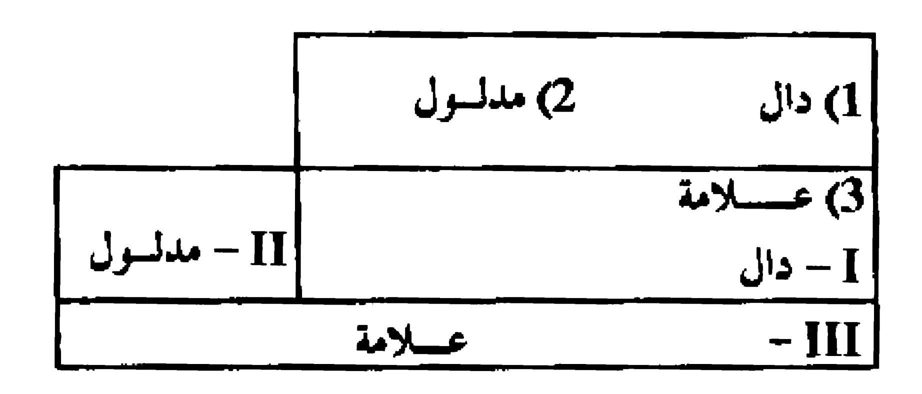
2 - المدلول.

3 - الدلالة، وهي الفعل الذي يجمع الدال لمدلول وينتج عنهما العلامة، وتتحول هذه العناصر الثلاثة على مستوى التضمين إلى دال لمدلول جديد يجمعهما نسق جديد من الدلالة.

---

(3) J. Dubois : Dictionnaire de Linguistique p : 100

(4) R. Barthes : Elément de Sémiologie p : 120



3-2-1 : تشير إلى التعيين .

I -II-III : تشير إلى التضمين .

وبهذا الأخطوط ميز (بارت) بين اللغة والأسطورة .

و استعان (جيرار جنيت)[5] في مقالته (ظهر العلامات) (L'envers des signes) من هذه الأخطوطة البارتية لرسم حركة الصورة البلاغية في فضاء اللغة مشكلة نصا أدبيا يتجاوز أفق الدلالة إلى أفق فوق الدلالة (Sur Signification) .

وقد ميز (تودوروف) انطلاقا من ثنائية : تعيين/ تضمين بين نمطين من العلاقات تدخل فيهما دوال العلامات .

1 - علاقة الدلالة .

2 - علاقة الترميز .

دال ⟵ شـــراع } علاقة الدلالة

مدلول (1) ⟵ شـــراع (اعتباطية)

مدلول (2) ⟵ سفينـــة } علاقة الترميز

(معللة)

(5) G. GENETTE, Figurel, ed, seuil, p : 192

ولا يوجد تعارض تام، ولاتطابق تام بين التعيين والتضمين، فأحدهما لاينفي الآخر، بل هناك حضور مشترك لهما على مساحة اللغة ولكل واحد منهما حكمه الذاتي ونسقه وبنيته.

إلا أن اللغة التضمينية هي التي تؤسس النص الأدبي وتمده بما هو جمالي وشاعري، فالأدب لايتأسس إلا بتحرره مما هو معجمي تقريري. اعتمادا على ما تقدم، يتضح أن للمعنى علاقة وطيدة بالسياق إذ يعتبر المعنى مسألة ضرورية وحاسمة يتوقف عليها تحديد سياق الكلام، وإن كان تحديد مفهوم المعنى جد صعب كما يقول (غريماس)، ويضم مستويات عديدة اقتصرنا فقط بالإشارة إلى بعضها.

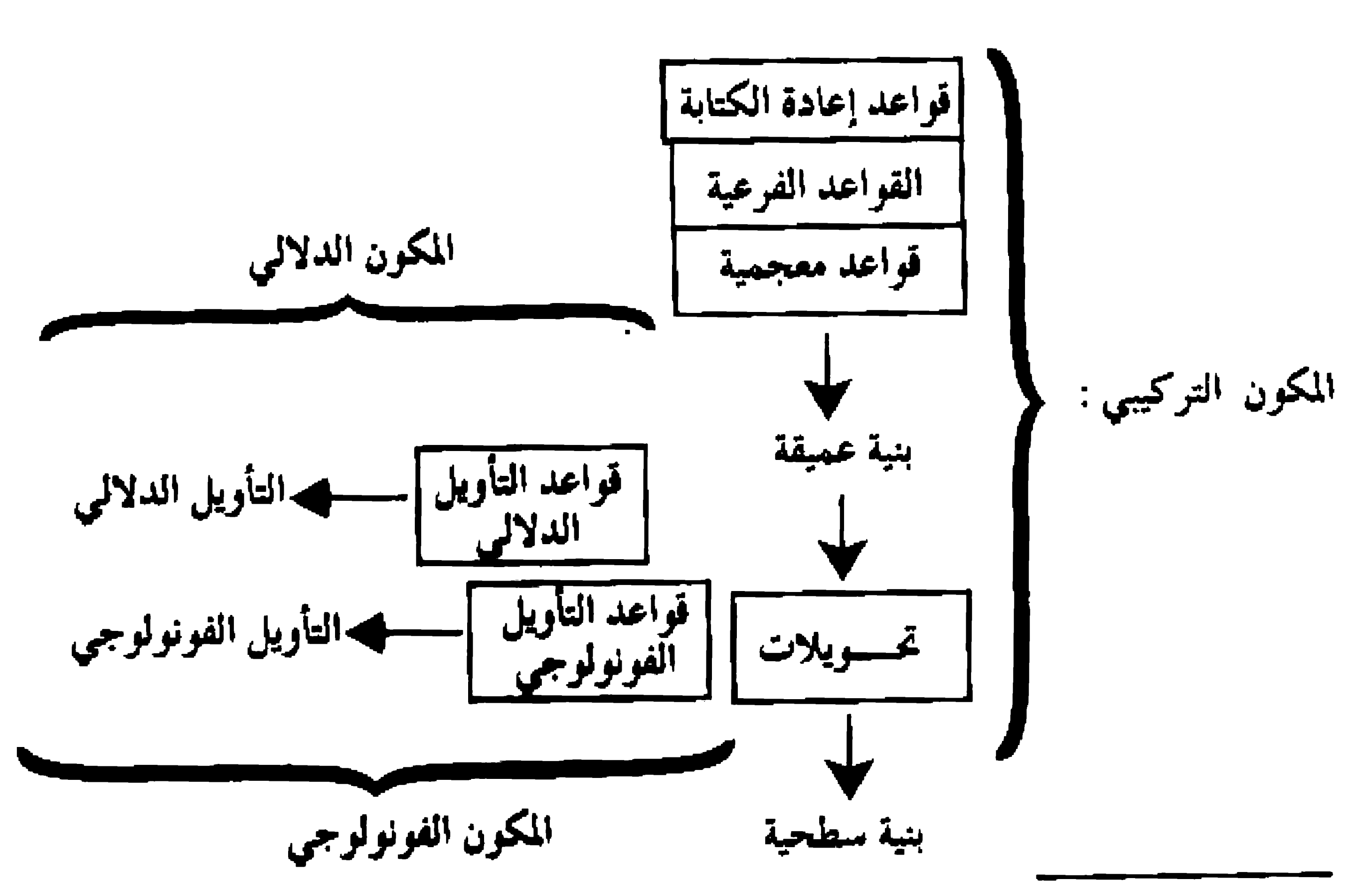
- السياق والتركيب :

إن علم الدلالة (La sémantique) حين يدرس اللغة فهو لا يخرج عن إطارها الداخلي، حيث يهتم بالبنية الداخلية للفظ، أي أن علم الدلالة يدخل المعاني داخل الجملة النحوية، هذه المعاني الناتجة عن مجموعة من العناصر اللغوية المؤلفة فيما بينها.

إن كل كلمة لها معنى وليس لها دلالة، لأن الدلالة من خصائص الجملة، والجملة لا تتوفر إلا بتوفر التركيب... فإذا كان المعنى يوجد بدون تركيب، فإنه يستحيل أن توجد دلالة بدون تركيب، ومن ثم فإن المكونين التركيبي والدلالي يدخلان في علاقة وطيدة، والمتتبع لمسار النحو التوليدي يلاحظ أن «شومسكي» قد أقصى في نموذجه الأول (1957) الدلالة هادفا إلى تأسيس نموذج صوري صرف، ومنطلقا من المسلمة القائلة : لا مجال لإخضاع الدلالة لإجراءات الوصف البنيوي، باعتبارها حقلا ينعدم فيه

الإطراد والتحديد وكذا لارتباطها بالواقع الخارج لغوي[6] إلا أنه سيعود ليدرج المكون الدلالي كمكون سياقي في نموذج (1965) حيث سيبرز أن القواعد التوليدية التحويلية تنتظم من خلال ثلاثة مكونات وهي : المكون الفونولوجي، والمكون التركيبي، والمكون الدلالي، وترتبط هذه المكونات مجتمعة بين الأصوات والمعاني، ويعتبر المكون التركيبي، المكون التوليدي الوحيد الذي يصف بنية الجمل ويفسر المكون الدلالي معاني هذه البنى ويخصص المكون الفونولوجي كل تركيب لغوي بنطق خاص.

بعد ذلك ستحتل مسألة الدلالة موقعا هاما حيث سيتم اقتراح نموذجين هما : نموذج (1963) لكارتز وفودور (Fodor و Kartz) و نموذج 1964 لكارتز وبوستال (Postal و Kartz) انطلاقا من ذلك سيصوغ شومسكي نموذج (1965)، والذي أطلق عليه اسم النموذج المعيار (Standar Model) ومعه سيجيب على أسئلة عديدة ستصنف ضمن الدلالة التوليدية (La Sémantique Générative) كما تبين الخطاطة الآتية :



(6) N. chomsky : Structutures syntaxiques, ed. Seuil 1969, p : 13.

أما أصحاب نظرية النحو التأليفي[7] ((La grammaire combinatoire) فقد انطلقوا من افتراض منهجي يقوم على الاعتبار التالي : عدم وجود أي قيمة لأي عنصر لغوي خارج المعطى التواصلي أي التركيبي «فالكلمة لا معنى لها في ذاتها لأنها قد تحتمل تغيرات دلالية كثيرة حسب السياق الذي ترد فيه، ونقصد بالسياق البنيات التركيبية التي ترد فيها، مثل :

- ضرب زيد عمراً.
- ضرب زيد السكة.
- ضرب زيد موعدا.

توزيعيا لا يمكن القول أن فعل «ضرب» له أكثر من استعمال، بل نقول بأن مادة «ضرب» كمدخل معجمي تركيبي» (Entrée lexicale) له أكثر من تركيب، فكل تأليفية» (Combinatoire) لها خصائصها التركيبية «التوزيعية والتحويلية» المختلفة، لذا فالعلاقة بين المداخل المعجمية الثلاثة لمادة «ضرب» علاقة فونولوجية، وهي وحدها لا معنى لها إنما معناها نظري بيولساني، وبناء عليه فضرب وحدها لا معنى لها إنما معناها يتحدد حسب السياق الذي ترد فيه، وبذلك يظهر أن لهذه العملية التوزيعية :

١ - بعدا دلاليا حيث أنها تؤطر العلاقة بين العناصر، هذه العلاقة المؤدية إلى خلق مداخل معجمية مختلفة ذات دلالة متميزة.

2 - بعدا تركيبيا، إذ تؤدي إلى خلق معادلة لها قوانينها التحويلية الخاصة.

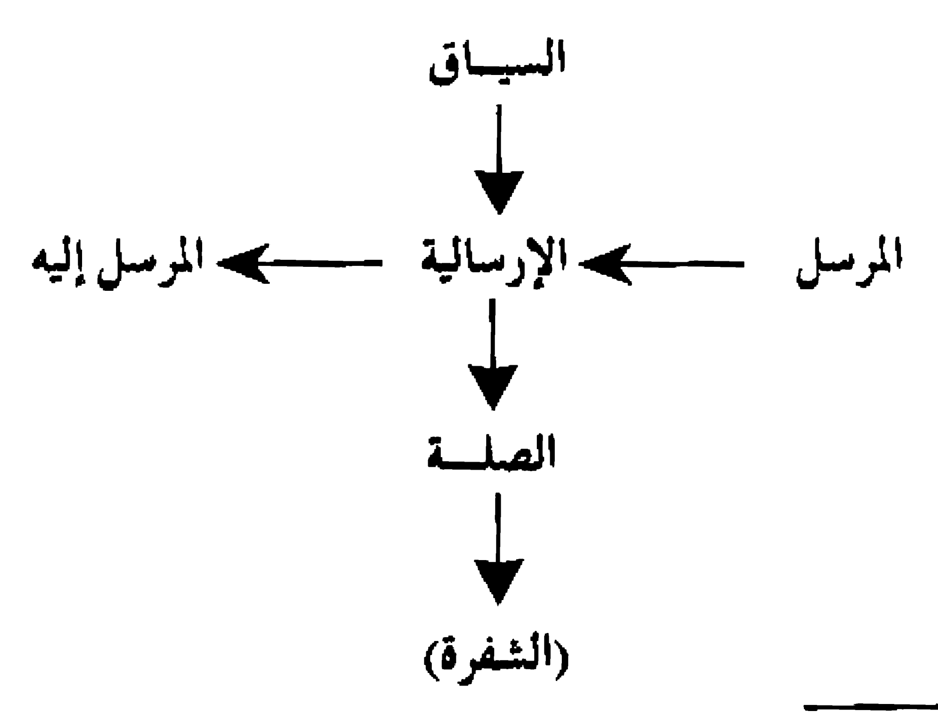
(7) محمد الخناش : النحو التأليفي (مدخل نظري) مجلة دراسات أدبية ولسانية. ع ١ السنة 1985، ص : 34 .

- السياق والمرجع :

المرجع (Référent)(*) هو الشيء الذي تحيل عليه العلامة اللسانية، وقد يكون المرجع ماديا ملموسا، وقد يكون متخيلا.

وتكمن قيمة المرجع في أن اتصالنا بالأشياء لا يكون في الغالب مباشرا أي ماديا ملموسا، وإنما نضع بيننا وبينها المفاهيم والتصورات (اللغة)، ومن ثم فإن الإشارة إلى المرجع والإهتمام به في إطار علاقته بالسياق شيء لا غنى عنه، وللمرجع مفهومان :

1 - الأول واسع : وهو حسب (جاكبسون)، الواقع الذي يتناوله الحديث أو الإرسالية، ويتجلى ذلك من خلال حديثه عن الوظائف اللغوية، حيث سيخصص المرجع بوظيفة لغوية أساسية «الوظيفة المرجعية» بحكم أن عملية التواصل في نظره تفرض ستة عناصر، وكل عنصر تلازمه وظيفة.



(*) لم يكتف اللسانيون بمناقشة قضية المرجع كقضية عامة، بل نحتوا مصطلحات أخرى، ومنها مصطلح (Coréférence) أي "الضمير العائد" ويرتبط بمجال التركيب والدلالة، وقد آثاروا حول هذا الموضوع خلافات عديدة، فهناك من يربطه بمجال التركيب، وهناك من يدرسه في مجال علم الدلالة، ويقصد به مايلي : إن المركبات الإسمية تتميز عن باقي المركبات الأخرى بوظيفتها داخل الجملة أو الخطاب، فكل =

والوظيفة المرتبطـة بالمرجع تسمــى «بالوظيفة المرجعية» "Fonction Référentielle" وهي مؤسسة حول الموضوع المتحدث عنه، فإذا عاينا حادثا وأخبرنا عنه يكون حديثنا هو ذلك الحادث وبذلك فإن الوظيفة المرجعية تقوم على التقرير والنقل. وتشكل هذه الوظيفة التبرير الأساسي لعملية التواصل، ذلك أننا نتكلم بهدف الإشارة إلى محتوى معين نرغب في إيصاله إلى الآخرين[8]، لكن الوظيفة المرجعية تتقاطع أحيانا كثيرة مع وظائف أخرى، رغم أننا نفترض فيها نوعا من الموضوعية، وتنافسها الوظيفة التعبيرية أو الإنفعالية المرتبطة بالمرسل، والتي تشير مباشرة إلى موقفه من مختلف القضايا التي يتكلم عنها.

ويشير ديكرو (Docrot) في الفصل المخصص من معجمه الموسوعي للمرجعية[9] إلى قضايا هامة وتتمثل في الإمكانات التي يقدمها لسان ما ليحيل على العالم الخاجي ويدل على الأشياء كما هو الشأن في :

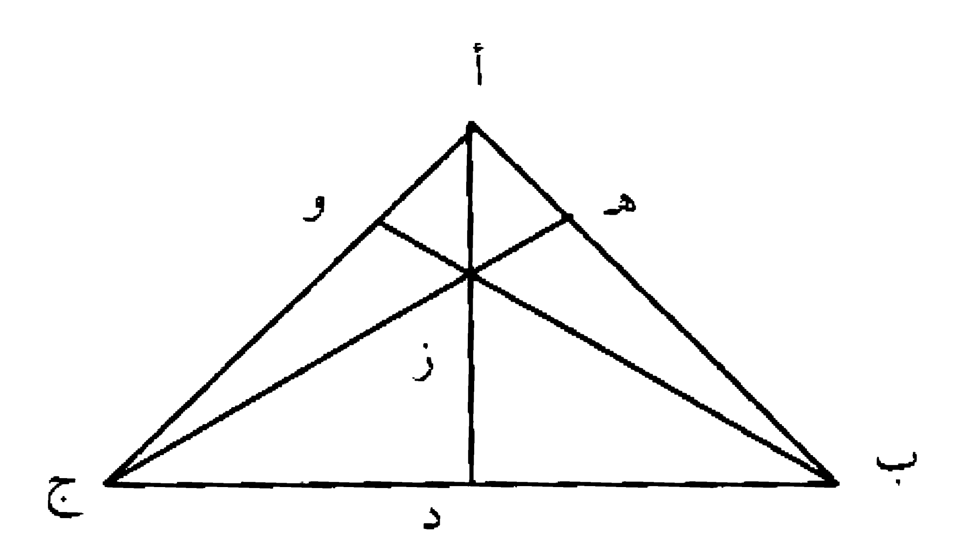
- التعريف الإسمي : (Les déscriptions définies)
- أسماء الأعلام : (Les noms propres)
- اسماء الإشارة : (Les démonstratifs)
- الإشاريات : (Les deictiques)
- المعرفات : (Les déterminants)

= متوالية إسمية إلا ولها مرجع قد يكون متعددا أو مشتركا، ويسمى بالإرجاع المشترك لكون مجموعة من الأسماء تشترك في الاحالة على مرجع واحد أي نفس المرجع. وقد ركز (فوكيني G. Fauconnier) في هذا التعريف على المستوى التركيبي وإن كان يهدف في الأساس إلى بناء نظرية تكاملية تجمع بين التركيب والدلالة. أما بالنسبة لموريس كروس (M. Cross) فإنه يعرف الإرجاع المشترك بأنه العلاقة الدلالية التي تربط بين اسمين داخل خطاب ما، انها العلاقة التي تفسر أشخاص أو أشياء أو مواقف توصف بواسطة هاته الأسماء، وهو بذلك يعتبر التشابه دلاليا أكثر مما هو صرفي أو تركيبي.

(8) **R. Jackobson** : Essai de Linguistique générale, p : 20

(9) **O. Docrot. T.TODOROV** : Dictionnaire encyclopédique des sciences de langage p : 321. 324.

2 - الثاني ضيق : وهو الذي اهتمت به الدراسات الفلسفية، خاصة أصحاب الفلسفة التحليلية (فريج، راسل/ ، كرناب. . .) ويقدم «فريج» المثال بكوكب "venus" المعروف : ب «نجمة الصباح» «نجمة المساء»، ليفرق بين المعنى والمرجع، فالعبارتين كما يظهر لهما مرجع واحد، وهو كوكب "venus" ولكن معناهما مختلف، ذلك أن المعلومات التي تنقلها العبارة الأولى «نجمة الصباح» تختلف عن تلك التي تنقلها العبارة الثانية «نجمة المساء» وبذلك يتضح أن المعنى هو كيفية إعطاء المرجع، والمرجع هو الشيء الذي ترجع إليه العبارة، ويسمى أيضا بالمشار إليه، ويتولد من خلال الدلالة وما تشير إليه أي الشيء المعين في الخارج، ولتوضيح هذه المعطيات يقدم (فريج) المثال التالي، وهو عبارة عن مثلث تتقاطعه خطوط مستقيمة كما يلي [10] :



حيث (ز) تشكل نقطة التقاء (أ، د)، (ب، و)، (ج، هـ)، فإذا قلنا إنه التقاء الخطوط (أ، د)، (ب، و) أو نقطة التقاء (أ، د)، (ب، و) يكون المرجع دائما واحدا، النقطة (ز)، ولكن طريقة الوصول إلى هذا المرجع تختلف من قول لآخر أو من عبارة لأخرى، وكنتيجة فإن المعنى يختلف.

(10) L. Linsky : Problème de la réference, ed. Seuil. 1974.

وتكتسي طروحات اصحاب الفلسفة التحليلية قيمتها من كونها تشكل الأساس النظري لأصول نظرية أفعال الكلام (Les Actes de langages) (لاوستين) والتي تطورت على يد (سورل).

أما في مجال الدرس الأدبي فقد ثم النظر إلى المرجع من زوايا عديدة (المؤلف-الواقع-النص-القارىء)، وأمام هذه الوضعية اختلفت طرق الإشتغال وتباينت الأعمال المنجزة، ولسنا هنا في معرض تفصيل لهذه الأعمال أو تحديد مميزاتها، وإنما تكتفي بالإشارة إلى أن النص الأدبي في علاقته بالمرجع يطرح العديد من الأسئلة من قبيل :

- هل النص الأدبي معزول عن المرجع «الخارج» أم أنه داخل فيه ومرتبط به ؟ كيف يؤسس هذا العزل ؟ أو كيف يحدد هذا الحضور والتداخل ؟ وهل يمكن الإقتصار على العلاقات النصية واعتبارها قوام النظام الداخلي للنص ؟ أم أنه لا بد من مرحلة يتم فيها الربط بين كل هذه العلاقات ؟ ألا يمكن الأخذ بالعلاقات النصية واعتبارها في ذات الوقت تمثل الواقع أي الخارج ؟ وهل هذا الخارج هو الأحداث أم النصوص المعاشة والمقروءة ؟ أم اللغة أم المتخيل ؟.

قد يكون المرجع كل هذا وأكثر، وتأتي قيمة هذه الأسئلة لكون الأدب مجال له خصوصياته والتي قد ترجع بالأساس إلى طبيعة لغته والتي تتميز عن غيرها من المستويات اللغوية الأخرى (كالفلسفية والمنطقية والعلمية. . .) فمن خاصيات اللغة الأدبية أنها لغة أحيانا بلا مرجع، أولا تحيل إلا على ذاتها (Sui réferensiel)[11] حيث يمتاز الدال بالشفافية، ومن ثم فإنها لا تعكس الواقع بل تبدعه وتعيد خلقه من جديد، ومن ثمة فاللغة الشعرية مثلا تخلق معادلة أخرى مع الواقع، وللتعرف عليها لغويا يشير (جاكبسون) إلى أنها تتشكل من نمطين أساسين: الإنتقاء والتأليف، فالشاعر ينتقي بعض الألفاظ ويؤلف فيما بينها بعد ذلك على درجة عليا

(11) E. Benveniste : Problème de Linguistique générale. Gallimard. 1966. 274.

من التعقيد، وبذلك تخلق اللغة الشعرية علاقة جديدة مع الواقع من خلال اللغة، وتبدأ العلاقة المعقدة بين الوظيفة الشعرية والمرجع، وفي مجال الأدب يمكن أن نستنتج شيئين :

أ- إنه يتم الإنتقال من اللغة العادية المؤسسة على الوظيفة المرجعية إلى لغة ثانية مؤسسة على الوظيفة الجمالية.

ب- إن الألفاظ في مجال الأدب تتحرر من دلالتها المباشرة والحرفية، ذلك أن العلاقة بين الدال والمدلول تتخلخل وتتراخى من الدلالة الأحادية، فالدال لم يعد يحيل على معنى واحد، بل على معان متعددة نتيجة الانتقال من المعنى الحرفي إلى المعنى الإيحائي.

وقد خلص (U.Eco) من خلال تحليله للغة الشعرية وعلاقاتها بمسألة المرجع والمرجعية إلى أن النص الأدبي نص مفتوح على قراءات متعددة، مما يجعل مسألة المرجعية بدورها مفتوحة بحكم أنها تكون محملة بما هو عاطفي وهذا ما يخلق للنص متعته الجمالية[12]. والتي لايرتبط بالسياق فقط، بل بالتناص أيضا كنسيج لعملية الكتابة والقراءة كما يذهب إلى ذلك روبير لافون وفرانسواز مادي.[13]

---

(12) U.ECO : L'œuvre ouverte. Col. Point. Ed Seuil p : 40.

(13) سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي، النص والسياق، المركز الثقافي العربي، الطبعة 1، 1989، ص 24.25.

القسم الثاني
السياق عند الغرب

التداوليات

- فرانسواز أرمينكو
- أوستين

- فرانسواز أرمينكو :

إن أقدم تعريف للتداولية نجده عند «شارل موريس» 1938، وهو تعريف واسع يجعل من التداولية جزءا من السيميائيات، وتهتم بمعالجة العلاقة بين العلامات ومستعمليها.

ويحدد «رودوف كارناب» التداولية بأنها قاعدة اللسانيات، ويرى (فرانسوا ريكانتي) بأن التداولية جزء من دراسة استعمال اللغة في الخطاب، والآثار الخاصة في اللغة والتي تشهد على مقدرتها الخطابية.

وإذا عدنا إلى تحديد (شارل موريس) فإنه يقسم الدرس اللغوي إلى المستويات الآتية :

- التركيب : ويهتم بدراسة العلاقة بين العلامات (حدوده الجملة).

- الدلالة : وتهتم بدراسة العلاقة بين العلامات والأشياء.

والمقاربتان معا لا تستنفذان كل مشاكل اللغة، خاصة الجانب التواصلي، ومن هنا تتدخل التداولية لدراسة علاقة العلامات بمستعمليها، وقد حددت لذلك مفاهيمها الخاصة، وهي مفاهيم ظلت غائبة عن فلسفة اللغة واللسانيات.

ويتضح مظهرها التجديدي في كونها طرحت مجموعة من المبادئ التي يقوم عليها الدرس اللساني وجعلتها موضع التساؤل وهي :

- أسبقية الاستعمال الوصفي والتمثيلي للغة.

- أسبقية النظام والبنية على الاستعمال.

- أسبقية القدرة على الإنجاز.

- أسبقية اللغة على الكلام.

وقد حققت الأعمال التداولية حاليا تراكما من الكتابات تسعى كلها إلى تجاوز الأشكال اللغوية (الأصوات - المعجم - التركيب - الدلالة) إلى مسألة الاستعمال، وفي هذا الإطار يتم الإهتمام بالسياق (Le contexte) وأخذه بعين الإعتبار كنعصر أساسي في عملية الإنتاج اللغوي.

وتشير فرانسواز أرمينكو[1] أن التداولية كنظام جديد وغزير لا تمتلك حدودا واضحة، إلا أنها تقع في مفترق طرق البحث الفلسفي واللساني، وتشير إلى تعدد الإتجاهات التداولية (تداوليات)، وهي :

- تداولية البلاغيين الجدد.

- تداولية السيكولوجيين.

- تداولية اللسانيين.

- تداولية المناطقة والفلاسفة.

- وحاليا هناك تنبأ بتداولية الأدباء.

والملاحظ أن قيمة البحث التداولي تأتي من كونه يسعى إلى الإجابة عن بعض الطروحات اللسانية السابقة من قبيل :

- من يتكلم ؟

- من هو المتلقي ؟

- ما هي مقصديتنا أثناء الكلام ؟

- كيف نتكلم بشيء، ونسعى لقول شيء آخر ؟

---

(1) Françoise Armengaud : La pragmatique "Que-suis-je" 1ère édition, (Aout) 1985.

- ماذا علينا أن نفعل حتى نتجنب الإبهام والغموض في عملية التواصل ؟

- هل المعنى الضمني كاف لتحديد المقصود ؟

وتبعا لهذه المعطيات وكيفية تشغيل السياق تحاول (أرمينكو) تصنيف الاتجاهات التداولية إلى درجات.

وتتساءل، هل علينا أن نقول بالتداولية أم بالتداوليات ؟ هل علينا أن نقول عنها درسا أم صراع دروس مختلفة ؟.

إن التداولية كمبحث في قمة ازدهاره، لم يتحدد بعد في الحقيقة، ولم يتم بعد الإتفاق بين الباحثين فيما يخص تحديد افتراضاتها أو اصطلاحاتها. فهي تقع في مفترق الطرق، حيث تلتقي اللسانيات والمنطق والسيميائيات والفلسفة وعلم النفس وعلم الإجتماع، فهي عند البعض (Praxis) براكسيس عليها أن تعين مهمتها في إدماج السلوك اللغوي داخل نظرية الفعل (Théorie de laction) بينما هي عند الآخرين تهتم أساسا بالتواصل، بل وبكل أنواع التفاعل بين الأعضاء الحية. بينما هي عند البعض الآخر تعالج استعمال العلامات أساسا، وهذا هو منظور أحد مؤسسيها (شارل موريس).

وبالنسبة للآخرين فالتداولية علم الاستعمال اللساني ضمن السياق، وبشكل أكثر اتساعا، هي استعمال العلامات ضمن السياق، فالتداولية في نظر (Max blak) (ماكس بلاك) يجب أن تسمى بالسياقية (Contextique) وهي في الأنسب الآن وتجنبا للتقسيمات العديدة سيتم الاعتراف بشقين أساسين للتداولية :

أ - الشق الأول :

- تداولية اللغات الشكلية : La pragmatique des langues formelles

- وتداولية اللغات الطبيعية : La pragmatique des langues naturelles

ب – الشق الثاني :

- تداولية أنماط التلفظ (Des modalités d'enonciation) والتي يعود ابداعها إلى تشخيص ألعاب اللغة عند (Wittgentein) ومفهوم (أوستين) القـــوة الإنجـــازية : (Force illocutoire) ومفهـــوم فعـل الكـــلام (Acte de langage) عند (سيرل).

- تداولية أنماط الملفوظ، أو الدلالة الإشارية، التي تتسع لتضم العوالم الممكنة عند (Gochet, Hintikka, Montague).

وهناك محاولات للتوحيد صدرت عن (Stalneker) (ستالينكر) في ربطه بين ثلاث نظريات (أفعال اللغة، الاستفراضات، العوالم الممكنة) والتي سيضيف إليها (كازدار وجاك) نظرية الألعاب الاستراتيجية (Théorie des jeux de stratigie)، ويعمل (سورل وفانذير فيكن) (Vanderveken) على إبراز الفعل الإنجازي (Illocutionnaire) بطموح شكلي وإدماجي هام.

ويبقى الخطاب التداولي محملا بمجموعة من الأسئلة من قبيل :

- هل التداولية مجرد خطاب تلحق به القضايا اللغوية التي يهملها التركيب والدلالة خاصة، أو أنها اتجاه لا يمكن لباقي مستويات الدرس اللغوي الأخرى الاستغناء عنه ؟

- ألا يمكننا الجمع بين مختلف الإتجاهات التداولية في اتجاه واحد منسجم ؟

- هل يمكن اختزال التداولية وإدماجها في الدلالة أو جعلها جزءا من نظرية سيميائية ؟

ونجد مجموعة من اللسانيين (التركيبيين والدلاليين والأدبيين) يدعون إلى إدماج التداولية في التركيب والدلالة، حيث اختزلها بعضهم في الدلالة، وأدرجها البعض الآخر في نظرية التركيب.

أما المناطقة والفلاسفة فهم في الغالب يولون أهمية للسياق ويعتبرون التداولية مكونا مستقلا ومتكاملا.

وقد صنف (هانسن 1974) (Hansson) مختلف الإتجاهات التداولية اعتمادا على تشغيلها لمصطلح السياق إلى ثلاث درجات:

- تداولية الدرجة الأولى: وتتمثل في دراسة الرموز الإشارية (Les symboles indexicaux)، والسياق عندها يتمثل في الإهتمام بالمتخاطبين ومحددات المكان والزمان.

- تداولية الدرجة الثانية: وتهتم بدراسة طريقة تعبير القضايا في ارتباطها بالجملة المتلفظة، والسياق بمعناه الموسع هنا (ستالنكر) يمتد إلى ما يحدس به المخاطبون، إنه سياق الأخبار والاعتقادات المتقاسمة، لا السياق «الذهني»[2].

- تداولية الدرجة الثالثة: وتتمثل في نظرية أفعال الكلام، ويتعلق الأمر فيها بمعرفة ما ثم من خلال استعمال بعض الأشكال اللسانية، ويعتبر مفهوم السياق في هذه النظرية غني جدا كما سنبين ذلك في هذه الدراسة.

وتخصص (أرمينكو) الفصل الثاني من الكتاب لتداولية الدرجة الأولى التي تهتم أساسا بدراسة الرموز: الإشارية (L'étude des symboles

---

(2) تظهر تداولية الدرجة الثانية عند المهتمين بدراسة وقع الخطاب (L'effets des discours) على المتكلمين والمستمعين، من سوسيولوجيين، ومعالجين نفسانيين (Psychothérapettes) ومتخصصين في البلاغة، وممارسي التواصل، ولساني تحليل الخطاب، أمثال: -Perel man و ducrot و Bourdieu و Kerbrot و Waxlawik وآخرين...

indexicaux)، وفي الباب الرابع والأخير تعالج مسألة السياق تحت عنوان : «السياق : التنويع أو التوحيد»، حيث تعتبر السياق كما نفهمه، مفهوما مركزيا، يمتلك طابعه التداولي، إلا أن الصعوبة تأتي من عدم معرفتنا أين يبدأ أو أين ينتهي، ونلاحظ «اتساعه» شيئا فشيئا، بمقدار ما نعبر من درجة تداولية إلى أخرى. . . إلا أننا نلمس تضخما خطيرا في الدرجة الأولى، مع أن في إمكاننا تخصيص حدودها من جهة، وإقامة نمطية من جهة أخرى.

وسنرى في البداية كيف تتأسس المحاولة على نظرة غير شكلية وكيفية نسبيا، وهي تعطينا أربعة أنماط من السياقات، كما نعثر على منظور مفهوم موحد للسياق، ينضم إلى العوالم الممكنة انطلاقا من معالجة شكلية وتوسيعية للتداولية.

1 – نمطية رباعية الأجزاء : Une Typologie Quadripartie -

أ – السياق الظرفي والفعلي والوجودي والمرجعي، ويحدد هوية المتخاطبين، ومحيطهم المادي، والمكان والزمان اللذين يتم فيهما الغرض، وكل ما يندرج في الدراسة الإشارية، من هنا كان موضوع التداولية عند «بارهيل ومونتاك»، هو السياق وما يجمعه من أفراد موجودين في العالم الواقعي.

ب – السياق المقامي أو التداولي، ونعبر هنا من شيء مادي خالص إلى شيء وسيط ثقافيا، ويتميز (المقام) بالاعتراف به اجتماعيا كمتضمن لغاية أو غايات وعلى معنى ملازم، تتقاسمه الشخصيات المنتمية إلى نفس الثقافة، وبهذا تندرج الممارسات الخطابية في مواقف محددة ضمنيا تارة، ومن خلال إعلان خاص تارة أخرى، وتكون الأقوال المعلنة لائقة فيما يظهر.

وكمثال على السياق المقامي : إحياء احتفال كنائسي، والمزايدة على أعمال، والمناقشة بين برلمانيين في جلسة علنية، والمغازلة والمداعبات الرديئة بين الأصدقاء. . .

ج - السياق التفاعلي : ويقصد به تسلسل أفعال اللغة في مقطع متداخل - الخطابات، إذ يتخذ المتخاطبون أدوارا تداولية محضة، هي الإقتراح والإعتراض، والتطبيق، ويستدعي فعل لغة ما فعلا آخر إلا أنه يخصص بحسب بعض العوائق المقطعية لأن تسلسل أفعال اللغة قضية منتهية.

د - السياق الإقتضائي : ويتكون من كل ما يحدس به المخاطبون من الإقتضاءات، أي من اعتقادات، وانتظارات ومقاصد. ويكون السياق الإبستمولوجي للإعتقادات، بالمعنى الدقيق الذي يعرفه (روبير ستالناكر) ويأخذه عنه (فرانسيس جاك) مشتركا بين المخاطبين.

2 - المفهوم الموحد : مجموع السياق (ستالناكر وجاك)

تبنى (ستالناكر وجاك) تعريفا للتداولية مفاده أن التداولية دراسة خضوع القضايا للسياق. فالاقتضاء الأولي لهذه التداولية هو وجود مفهوم بسيط ووحيد للسياق، لأن السياق الذي تخضع إليه الجمل هو الذي يستعمل في تحليل افعال اللغة، والذي يعبر من خلاله عن قواعد منطق الحوار.

ومن هنا يسمح المفهوم الموحد للسياق من نمو تداولية محضة يكون موضوعها هو معالجة ما يعود في اللغات الطبيعية إلى الشروط العامة للتواصل.

أ – تطور السياق مع تطور الخطاب في نفس الآن :

يغير كل فعل كلامي لغة السياق، إذ تكلف المسألة المخاطب مثلا الجواب، وهذا ما يستدعي الاعتراض، ويؤثر السياق في عرض القول بتعديله، لأن السياق هو أثر أفعال اللغة السابقة، وسبب أفعال اللغة اللاحقة.

ب – دقة مفهوم السياق وقوته استنادا إلى مفهوم العالم الممكن :

فسيميائية العوالم الممكنة، إطار يلائم التداولية، ويتعلق الأمر هنا بتوسيع تعاقب العوالم خارج العالم الواقعي، وهكذا يكون بإمكاننا تطبيق قيم الحقيقة على الملفوظات مثل الصيغة، «من الضروري أن ب» – « حقيقي في كل كذا...» ونفس الشيء فيما يخص الإعتقادات، ويعتقد فلوسي "Flossie" بأن «ب» = «ب» حقيقي في كل كذا، وينسجم مع الإعتقادات ومن ثم تعرف القضية كمجموع خاص لكذا، إذ إن المضمون القضوي حقيقي، ما دامت القضية هي وظيفة، لها كمجموع انطلاقها... وكمجموع لوصولها قيم حقيقية وخاطئة تدفع إلى التطبيق، وهذا يعني أنه للتعبير عن قضية من اللازم التمييز بين الإمكانات، وهذه القدرة اساسية عند المتكلم لأن مجموع العوالم الممكنة الدقيقة في وضعية ما هي مجموع–السياق.

ويظهر من خلال ما تقدم أن الإهتمام بالسياق والتنظير له كأداة إجرائية قد أخذ مسارا عميقا مع البحث التداولي بمختلف اتجاهاته، وقد مهد لذلك علم الدلالة (La Semantique) خاصة بعد تجاوزه للمسعى التواقتي أو التعاقبي (Diachronique) إلى الإهتمام بالوحدات اللغوية على المستوى التوقيتي (Synchronique) ومحاولة كشف مختلف العلاقات بين المدلولات التي تشكل معنى الخطاب أو الملفوظ.

هكذا فالسياق مسألة ضرورية وحاسمة في مجال اللغة، حيث يسمح لنا بالحديث عن الأشياء بدقة ووضوح، ويمكننا من تحديد ودراسة

العلاقات الموجودة بين السلوك الإجتماعي والكلامي في استعمال اللغة وأي استغناء عن السياق سيجعل قناة التواصل متوترة، فغالبا ما يخدع المعنى الحرفي للملفوظات في غياب القيمة التلفظية، حيث الكلمات ومعانيها الحرفية ما هي في الواقع إلا قالب تنصهر في إطاره الملامح النطقية (التنغيم، النبر)، والخارج لغوية (حركات الرأس واليد والتعبير بالوجه). وهذا ما ستعالجه نظرية أفعال (الكلام) (Les actes de Languages) كنظرية تداولية تهتم بكافة الملابسات السياقية المحيطة بالملفوظ سواء ما علق منها بعملية انتاجه أو تلقيه.

- تداولية أفعال الكلام :

نسعى من خلال تقديمنا لنظرية أفعال الكلام عند أوستين[3] أن نبرز أهم منطلقات هذه النظرية باعتبارها من أهم النظريات التي أصبحت ذات فعالية في مجال البحث التدولي والتلقي الأدبي. وتتميز هذه النظرية بجدة مصطلحاتها وطريقة معالجتها للغة، فاللغة بالنسبة «لأوستين» ليست وسيلة للتواصل فقط وإنما هي أيضا وسيلة للتأثير في الواقع وتغيير سلوكنا ومواقفنا. وتعتبر نظرة «أوستين» للغة نقلة نوعية في مجل البحث اللساني بشكل عام والتداولي بشكل خاص.

وقد انطلق في بحثه عن طبيعة اللغة من فعل الخطاب (Acte de Discours)، ثم وقف على ما يمكن تحقيقه بمجرد الكلام. . فإذا كانت الفلسفة تطلعنا على واقع يختلف عن ذاتها جوهريا فإن هذا الواقع لايمكن أن يكون إلا نحن باعتبارنا نتحدث ونتكلم.

وقد قسم الملفوظات إلى قسمين : تقريرية وإنجازية.

- الملفوظات التقريرية / (E. Constatives)

بما أن كل القضايا الصادقة منها والكاذبة ليست كلها دالة على الوصف فقد عدل (أوستين) عن لفظ الوصف واختار بدله لفظ تقريرية

---

(3) J. L. Austin : Quand dire, c'est faire, ed. Seuil: 1970.

(Constative)، والتي تنحصر وظيفتها في وصف الحوادث وحالات الأشياء، وهي تخضع في الحكم عليها إما للصدق أو للكذب، فحين نقول مثلا :

- الجو جميل.

إنما نكون بصدد تمثيل ونقل الواقع كما هو، فإذا كان الجو جميلا فعلا، فإن قولنا يكون صادقا، أما إذا كان الجو عكس ذلك فإن قولنا سيكون كاذبا.

- الملفوظات الإنجازية / (E. Performatives)

وهي ملفوظات لا تدل على الصدق أو الكذب وإنما من خلالها ننجز شيئا ما، قد يكون وعدا أو أمرا أو تهديدا . . . ، كما في الأمثلة الآتية :

- آمرك بإغلاق الباب.

- أعدك بأنني سأزورك غدا.

واصطلح «أوستين» على تسميتها بالإنجازات (Les Performatifs)، فحين نقول بأن التلفظ الإنجازي هو انجاز للفعل المذكور في الملفوظ، فذلك يعني أن هذا الفعل هو وظيفة هذا التلفظ وليس نتيجة من نتائجه فقط.

والفرق بين الملفوظات التقريرية والإنجازية يتمثل في أن اللغة تخضع للواقع وتحاول أن تمثله، وقد يكون هذا التمثيل صادقا أو كاذبا، بينما في الملفوظات الإنجازية، فإن الواقع يخضع للغة، واللغة تحاول أن تغير هذا الواقع، ففي قولنا، مثلا :

- آمرك بإغلاق الباب.

فإن الذي يحاول أن يغيره هذا الملفوظ هو وجود مفترض أثناء الحديث، والتغير المراد حصوله هو إغلاق هذا الباب.

إن التمييز بين الملفوظات الإنجازية والملفوظات التقريرية هو تمييز بين ملفوظات تصف الحقيقة وأخرى تنشىء حقيقة جديدة.

إلا أن الوصول إلى إنجاز هذا النوع من الأفعال يستوجب إسهام معطيات أخرى خارج - لغوية، ويتطلب مطابقة مجموعة من الظروف، وفي حالة توفرها يكون الفعل موفقا وناجحا، ولا يكون أبدا صادقا، بينما إذا لم تتوفر هذه الظروف فإن الفعل يكون فاشلا ولا نصفه بالكذب.

إن الحديث عن الواقع هو حديث عن المرجعية، ذلك أن الملفوظات التقريرية تحيل بصفة مباشرة على الواقع:

اللغة ←——— الواقع.

بينما نجد الملفوظات التقريرية تحيل على نفسها، (sui-référentiel) أي أنها تحيل إلى واقع تكونه بنفسها[4]: اللغة

وللتمييز بين هذه الملفوظات، يذهب «أوستين» إلى أبعد الحدود حيث يستحضر مقاييس نحوية تختص فقط بالملفوظ الإنجازي وتتمثل في كون الملفوظات الإنجازية تكون دائما مصدرة بفعل ضميره هو المتكلم المفرد، وزمنه هو المضارع أو الحاضر المبني للمعلوم: أعد - آمر...

إلا أن هذا المعيار لا يمكن الاعتماد عليه كثيرا للتمييز بين الملفوظات ذلك أن كثيرا من التعابير أو الملفوظات الإنجازية تفتقد هذه القيم المميزة، و من ذلك مثلا أحاديث الملوك والرؤساء، حيث نجدهم يتحدثون بضمير (نحن) وكذلك في بعض التعابير مثل: (المرجو من المسافرين الإبتعاد عن السكة) والتي وإن كانت من حيث المعنى إنجازية فإن شكلها لا يتماشى مع ما حدده «أوستين».

---

(4) E. Bnveniste : problème de linguistique générale, p : 274.

إلا أن المعيار النحوي وإن لم يصمد طويلا في محاولة اثبات التمييز، فإن «أوستين» ينتبه إلى أن هناك انجازيات عديدة لا أثر فيها للفعل بكل أزمنته وضمائره.

وسيوسع من دائرة الإنجازيات حيث سيقسمها إلى قسمين : قسم يكون فيه الفعل المعبر عنه غير موجود أو غير ظاهر ويسميه الإنجازي الأولي (Performatif Primaire) مثلا :

- أغلق البـــاب.

ويعتبر هذا الملفوظ عند «أوستين» ملفوظا إنجازيا لأنه قابل للتوضيح والتفسير بواسطة الملفوظ الإنجازي التالي :

- آمرك بإغلاق الباب.

ونلاحظ أن الفعلين متماثلان لأن كلا منهما يمتلك قيمة الفعل أي «فعل الأمر» إلا أن الملفوظ الثاني ليس فقط مجرد أمر بل يقدم نفسه بوضوح كأمر، لأن الفعل الإنجازي يضفي دلالة نوعية وأكثر تخصيصا وهذا النوع الذي يمتلك مؤشرا واضحا وبارزا يسميه «أوستين» انجازيا مفسرا أو صريحا (Performatif Explicite) والإنجازيات الأولية بالرغم من أنها أفعال، فإن طبيعة الفعل مضمرة، وتكون قابلة للتوضيح عن طريق الإنجازيات المفسرة.

فالأفعال (آمر، أحذر...) هي أفعال انجازية مضمرة في الملفوظات الإنجازية الأولية، ويلاحظ (ليونز Lyons) بخصوص هذا التمييز : أننا باستعمالنا الملفوظ الإنجازي سواء كان أوليا أو مفسرا فإننا ننجز نفس الفعل، ولكن ليس معنى هذا أننا ننجز نفس المعنى ونفس القيمة، إن الإنجازي المفسر أكثر تعينا من الإنجازي الأولي[5].

(5) G. Lyons, Sémantique, Larousse, 1980 p : 348.

إلا أن غياب الأفعال الإنجازية عن بعض الملفوظات يجعل هذه الأخيرة مكتنفة بغموض إلى درجة يستعصي معها تحديد نوعيتها إن ملفوظا مثل :

- سأعود حالا .

لا يمكن أن نقر له بنوعية محددة في غياب السياق الملفوظي فقد يكون وعدا أو تخمينا أو إنذارا . . . واحتمال هذه الإمكانيات دفع «أوستين» إلى ادماج مثل هذه الملفوظات ضمن لائحة الملفوظات الإنجازية الأولية .

إلا أن التمييز بين قول الشيء وفعل الشيء بواسطة اللغة لم يمكن «أوستين» من الخروج برأي نهائي بخصوص هذا التمييز ، ذلك أن قول شيء معين وتقريره لا يبتعد عن نطاق الفعل باعتبار هذا القول يمثل في ذاته شكلا للفعل .

وقد استخلص «أوستين» أنه لا جدوى من البحث وراء سراب التمييز بين الملفوظات الإنجازية والملفوظات التقريرية .

وهكذا ينتهي الجزء الأول من نظرية «أوستين» بعجزه عن التمييز بين الملفوظات التقريرية والملفوظات الإنجازية معتبرا أن كل ملفوظ يملك بعدا تقريريا وبعدا إنجازيا ، وعلى هذا الطرح سيبني القسم الثاني من نظريته .

الأفعال الكلامية :

بالرغم من احتكام «أوستين» إلى مختلف المعايير والمقاييس للتمييز بين الملفوظات التقريرية والإنجازية فإنه سيتخلى عن ذلك ، لارتياد مجال آخر جديد وهو مجال الأفعال الكلامية ، وهكذا سيميز بين ثلاثة أنواع من الأفعال المرتبطة بالملفوظات وانجازها ، وذلك أن كل عملية تلفظية بجمل أيا كانت نوعيتها تتبعها حتما هذه الأفعال المتناسقة والمتداخلة :

1 - فعل التلفظ (Acte Locutoire) وهو مجرد التلفظ بأصوات نطقية .

2 - فعل الخطاب : (Acte Illocutoire) وهو قول شيء معين ، أي كلام قد يفيد تقريرا أو وعدا أو استفهاما .

3 – فعل التأثير بالخطاب (Acte Perlocutoire) وهو الفعل الحاصل نتيجة لما نقول لأنه غالبا ما يكون للتلفظ بكلام تأثير معين على سلوك الآخرين مثل : اقناعهم، أو امتناعهم، أو اغضابهم.

1 – فعل التلفـــظ :

يقسم «أوستين» فعل التلفظ إلى ثلاثة أفعال صغرى :

– الفعل الصوتي (Acte Phonétique) وهو مجرد انتاج أصوات.

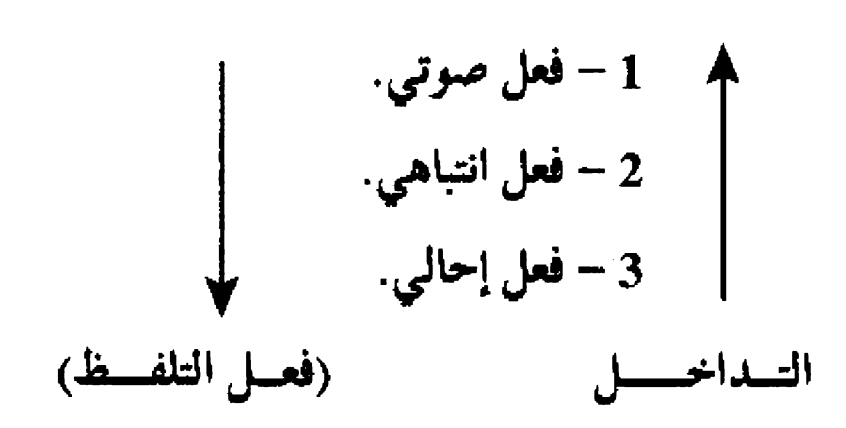
– الفعل الإنتباهي (Acte Phatique) وهو انتاج لكلمات يكون لها رصيد في المعجم وتكون خاضعة لقواعد النحو والتركيب.

– الفعل الإحالي (Acte Rhétique) وهو استعمال هذه الكلمات في معنى معين مع تحديد مراجعها باعتبار أن الدلالة هي المعنى والمرجع حسب «أوستين» والفلاسفة.

وهذه الأفعال الصغرى متداخلة فيما بينها، ذلك أننا في أية عملية كلامية لا بد وأن نصدر متوالية من الأصوات تنتمي إلى لغة معينة ويجب في هذه الأصوات أن تكون خاضعة ومطابقة للقواعد النحوية والتركيبية لهذه اللغة، وبذلك نضفي على هذه المتوالية معنى معينا.

ويبدو أن التداخل بين الفعل الصوتي والفعل الإنتباهي واضح إلى درجة يصعب معها الفصل بينهما، ذلك أن انتاج الفعل الثاني يفترض بالضرورة معه فعل صوتي. أما الفعل الإحالي فيرتبط ارتباطا وثيقا بالفعل الإنتباهي فإذا كان الفعل الإنتباهي هو الكلام الوارد بعد فعل القول أي ما نسميه بالخطاب المباشر، فإن الفعل الإحالي هو الخطاب غير المباشر.

وتبقى حصيلة اجتماع هذه الأفعال الثلاثة الصغرى في مستوى تدريجي نازل هي تحقيق فعل التلفظ، بينما يظهر لنا في المستوى الصاعد علاقة التداخل بين هذه الأفعال الثلاثة بحيث إن تحقيق الفعل (4) يتطلب الفعل (3) والفعل (2) يتطلب الفعل (1).



وهذا النشاط التلفظي يفترض في كل تلفظ أنه يحمل معنى .

2 – فعل الخطاب :

لتعريفه يجب تحديد الحالات التي تستعمل فيها هذه العبارات .

- نطرح سؤالا أونجيب عنه .
- نعطي معلومة أو نؤكد أو نحذر .
- نعلن حكما أو قصدا أو نية .
- نتلفظ بحكم .
- نقوم بتعيين أو استدعاء أو انتقاد . . .

إلا أن تحديد هذه العبارات يبقى غير دقيق ، والصعوبة تكمن في تعدد واختلاف معاني هذه الكلمات، وكيف نستعملها، فهذه الكلمات قد تحيل على فعل التلفظ، وفي فعل التلفظ نستعمل الخطاب، فكيف نستعمله؟

إن للخطاب وظائف عديدة، واستعمالات مختلفة، وبقدر تنوعها وبقدر اختلاف الاستعمال سيختلف الفعل .

إن فعل الخطاب حسب «أوستين» فعل ينجز بواسطة القول، ويحاول (ديكرو) في المقدمة التي وضعها لكتاب «سيرل» «الأفعال الكلامية» أن يوضح فعل الخطاب كما ورد عند «أوستين» من خلال المثال التالي :

- هل سيكون الجو جميلا غدا ؟

إذا اعتبرنا الإستفهام بلاغيا، لا يشكل إلا جزءا من مقال أو خطبة، فليس له من دور سوى التعبير عن شك أو قلق.

أما إذا كان السؤال موجها إلى مستمعين معينين، فإنه وبكل تأكيد سيأخذ قيمة أخرى، إذ سيصبح سؤالا وسيكون مستعملوه ملزمين بالإحالة عليه، وهذه الخصائص التي يأخذها التلفظ حينما نموضعه داخل علاقات الخطاب يسميها «أوستين» أفعالا خطابية، إلا أن هذا التعريف يبقى عاما وغير محدد مما يؤدي إلى اعتبار الأفعال الخطابية هي كل العلاقات التي تتأسس بين المتحاورين في خطاب ما. إن انجاز المتكلم لفعل خطابي كالإستفهام مثلا يجعله يسند إلى نفسه دورا، وفي نفس الآن يسند إلى المستمع دورا آخر، إذ بوضع الأول للسؤال يعبر عن رغبته في جواب الثاني، فالمستمع هوالمخصوص بفعل الخطاب لأنه يدخل في علاقة تضطره للجواب[6]، ولكي يتم فعل الخطاب يشترط «أوستين» فهم المستمع للقوة الخطابية التي يعطيها المتكلم للملفوظ، وقوة الخطاب هي كل ما يتعلق بإنجازه ويكسبه نوعية خاصة : كأمر، وعد، استفهام . . .

وبناء عليه فالفعل لن يتم إلا إذا أدرك المستمع قصد المتكلم.

ويعتبر فهم الخطاب نتيجة من نتائج الفعل الكلامي، فقد تكون قوة الخطاب هي الإستفهام، ونتيجة الخطاب هي :

- إما الجواب عن السؤال.

- أو الرفض.

والحالة الأولى تعتبر عادية، ونتيجة طبيعية ولا تطرح أي إشكال، بينما في الحالة الثانية فإنه ينظر في فهم المستمع للخطاب لأن «أوستين» حين نص على فهم الخطاب فهو يقصد منه : اعتراف المخاطب بالخطاب كفعل للمتكلم يبلغه به شيئا.

---

(6) Ducrot : le dire et le dit. Minuit. 1984. p : 42.

إن لكل فعل خطابي قوة خاصة (Forces) ومحتوى قضياتي (Contenu - Propositionnel) فالمحتوى القضياتي للفعل الخطابي هو حالة الشيء الذي تصفه الجملة.

ويقدم «أوستين» ثلاثة مقاييس للتعرف على فعل الخطاب وهي :

- إنه فعل ينجز في الكلام ذاته وليس نتيجة تنتظر من الكلام.

- إنه فعل قابل للتفسير بواسطة صيغة انجازية.

-إن الفعل الخطابي دائما ذو طبيعة اصطلاحية تواضعية.

ويصنف «أوستين» الأفعال الخطابية على أساس القيمة الخطابية التي تملكها هذه الأفعال إلى خمسة أقسام عامة :

- قضائي (Verdictif) : لإصدار الأحكام.

- مراسي (Exercitif) : لإثبات سلطة أو تأثير.

- وعدي (Promissif) : لتقرير أخبار أو قصد.

- سلوكي (Comportatif) : لضبط المواقف.

- عرضي (Expositif) : تساعد في استمرار الحوار بتفسير الغموضات.

3 - فعل التأثير في الخطاب :

ما دامت كل إرسالية موجهة إلى مخاطب معين، فإنها تسعى إلى إقناعه بفعل ما (Convaincre)، وكنتيجة لذلك استجابته لهذا الفعل، وتسمى هذه الإستجابة فعلا استجابيا أو فعل التأثير في الخطاب، إلا أن هذا الخطاب لن يستجيب إلا إذا تمركز في ذهنه فعل الإقتناع (Persuader) والفرق بين أقنع (Convaincre) واقتنع (Persuader) يكمن فيما يلي :

- فعل أقنع (Convaincre) يشترك فيه المخاطب والمتلقي معا.

- فعل اقتنع (Persuader) يختص بالمخاطب لوحده.

إن فعل التأثير في الخطاب يحتاج إلى مجموعة من الأفعال، وهذا النوع من الأفعال يفترض في كل الإستجابات، وإذا قام المخاطب مثلا بإغلاق الباب بعد فعل الأمر، فإنه لا يقول : إني اقتنعت وسأقوم بإغلاق الباب. ولكنه يقوم ويغلقه، وفي فعله هذا اقتناع بفعل الأمر وإذا كانت هذه الأفعال مضمرة دائما فلأنه استغنى عنها بالإستعمال.

ولكي تحقق الأفعال الكلامية نجاحا ربطها «أوستين» بمجموعة من الشروط، تقوم مقام القيمة الصدقية للملفوظات الكلام، وجمع «سيرل» هذه الشروط في ثلاثة مستويات معتمدا في ذلك على أوستين :

- الشروط الأولية : (Conditions-Préliminaires)
- الشروط الجدية : (Conditions de Sincerité)
- الشروط الأساسية : (Conditions-Essentielles)

- الشروط الأولية : وتحدد وضعية المتكلم التي تسمح له بفعل خطابي ما، وهذا التحديد يجعله أهلا لإصدار ملفوظه، ذلك أنه يجب على الشخص الذي ينجز الفعل أن يتوفر على صلاحية وسلطة تخولان له انجاز هذا الفعل ويتحتم في ملفوظه أن يكون منتجا في مقام ملائم لفعل الخطاب، فملفوظ مثل :

- افتتحت الجلسة.

يجب أن يكون منجزه في وضع اجتماعي يسمح له بهذه الصياغة اللغوية، ولن يكون لهذا اللفظ أي معنى إلا إذا كان هذا الشخص رئيس محكمة أو ما يعادل ذلك، ومقام هذه الإرسالية هو المحكمة.

- شروط الجدية : يجب على المتكلم أن يكون صادقا في كل أقواله، وإذا كان الشخص الذي ينجز الفعل لا يفعله بجدية فإن فعله الخطابي لن

يكون فاشلا، ولكن سيكون المتكلم قد ارتكب إثما، إذ لو كان شخص يقوم بفعل إثبات ما يعلم أو يظن أنه خاطئ، فإنه بذلك يرتكب ما نسميه بالكذب، وما فعله في المحكمة يكون قد ارتكب شهادة خاطئة أو ما نسميه بشهادة زور.

- الشروط الأساسية : إن الشخص الذي ينجز فعلا ما، يكون مرتبطا بواسطة خطاب ملفوظه ببعض الأفكار والمقاصد وهو بذلك يكون ملتزما فيما يقول أن يعبر عن مسؤوليته بخصوص صدق القضية التي يفصح عنها ملفوظه، وهذا الإلتزام مسألة سلوكية، وهوسلوك خاص مستقل عن الصدق والحقيقة، إلا أنه جوهري وأساسي بالنسبة للملفوظ، ويمكن للمتكلم أن ينتج ملفوظا يتناقض أو يتعارض مع معتقاداته ومقاصده، ولذلك يعتبر من يناقض أقواله بمثابة من فصم التزاماته إزاءها، مثل فصم الواعد لوعد وعده.

هذا عرض لأهم القضايا المتعلقة بالملفوظ التي عالجها «أوستين»، والإهتمام بالملفوظ، هو إهتمام بالمتكلم، وبكل الشروط السياقية التي تحكم عملية التواصل بين المتكلم والمستمع، ودراسة اللغة أثناء عملية الاستعمال.

علم النص
"فان ديك"

سنعالج مسألة السياق عند (Van Dijk) (فان ديك) من خلال مقاله، النص: بناه ووظائفه (مدخل أولي لعلم النص).

و تندرج طروحات (فان ديك) في إطار ما يسمى (أنحاء النص) حيث لا يقف عند البنى السطحية والتركيبية للنص ولكنه يتجاوزها إلى ربط النص ببنيات خارجية ساعيا بذلك إلى إقامة تصور متكامل حول النص يسمح ببناء نظرية منسجمة تتجاوز الحد السكوني الذي تقف عنده «البويطيقا» أو «السرديات» إلى مقاربة «دينامية للنص».

فالنص يتشكل من مظاهر أكثر تعقيدا مثل (الممارسات النصية) و(التواصلية) والتي ترتبط بعدة سياقات يتبع بعضها الآخر، ويتداخل معه، لذا فإن تطور البويطيقا اصبح الآن ضرورة نظرية ومنهجية لمواكبة التطورات الحاصلة في مجال اللسانيات نفسها.

و يقدم تحديده للنص الأدبي بناء على التصورات الاتية:

1 - ليس الأدب مجموعة نصوص فقط، إنه بالأحرى مجموعة من الممارسات النصية.

2 - النص الأدبي يجب أن يعتبر في آن واحد (نتاجا) لعملية الانتاج، وأساسا لأفعال وعمليات (تلق) و(استعمال) داخل نظام التواصل والتفاعل.

3 - هذه العمليات التواصلية الأدبية تقع في عدة «سياقات» تداولية ومعرفية وسوسيو-ثقافية، وهذه السياقات هي التي تحدد الممارسات النصية وتتحدد بواسطتها.

4 - إن السياقات الأدبية تتمفصل بحسب جماعة المشاركين وأدوارهم، وبحسب (المقامات) والمؤسسات، وأحيانا بحسب

التعاقدات والقواعد والإستراتيجيات التي تنظم الممارسات النصية في سياقات تتأسس على قاعدة مجموعة من القيم والأحكام المحددة «الايديولوجيا» الادبية.

و قد سعى (فان ديك) ابتداء من (1972) إلى إقامة (أنحاء النص) متجاوزا الآراء المطروحة حول (نحو النص)، والنص عنده ماخوذ بمعنى عام يتجاوز الجملة، إنه الخطاب.

فهو يأخذ بعين الاعتبار كل الأبعاد الدلالية والتداولية المكونة للنص ويحدده بأنه بناء نظري مجرد لايتجسد إلا من خلال الخطاب كفعل تواصلي وفي إطار هذه العلاقة يتم الربط بين النص وسياقه التداولي، وقد قدم نظرية مركبة تستفيد من التداوليات والسوسيو-لسانيات، والسيكو- لسانيات، وغيرها . . . لتتاح إمكانية معالجة النص ومعاينته من خلال خصائص السياق بمختلف تمظهراته، وفي هذا الإطار نقوم بعرض مركز لأهم القضايا الواردة عند (فان ديك) في مقال مهم يحمل عنوان: «النص بناه ووظائفه» وارد في كتاب «نظرية الأدب»[1].

يستهل (فان ديك) مقاله بمقدمة، يقول: لكي نجيب بجدية على السؤال المتعلق بمعرفة الخصائص النوعية التي تتمتع بها النصوص الأدبية، علينا أن نتساءل أولا عن الخصائص التي تتصف بها النصوص الأساسية، متجاوزا استخراج خصائصها الداخلية إلى خصائصها الخارجية أي إلى الشروط التي تخضع لها في سياقات معينة، ووظائفها وأثرها في هذه السياقات، مع تحديد العلاقات القائمة بين النص (بنية النص) والسياق.[2]

---

(1) Kibedi Varga : Théorie de lalittérature. (Ouvrage Collectif) 1981. col: connaissance des langues. P : 63-93

(2) T. Van Djk : Le texte : structures et fonctions, introduction élémentaires à la science du texte. p : 63

إن النصوص و(سياقاتها) هي مادة أبحاث وتدريس في أكثر من ميدان علمي علاوة على اللسانيات والآداب تدرس النصوص في علم النفس والإجتماع والفلسفة والانتربولوجيا واللاهوت، وفي العلوم القانونية والتاريخية، ومن البديهي أن ثمة جوانب أخرى للنص هي التي تألف موضوع الدرس في مختلف هذه الميادين، يضاف إلى هذا أن الاهتمام قد يتناول نماذج النصوص أو بعض الخصائص النوعية في السياق النفسي والاجتماعي، غير أن بالإمكان دراسة النصوص بصورة مشتركة بين عدة ميادين، وذلك مثلا بتحليل الخصائص الأكثر عمومية التي تتصف بها النصوص واستعمال اللغة، وانطلاقا من هذه المقاربة للنصوص يسعى (فان ديك) إلى تعميق الطرح الذي ينادي به أصحاب علم النص (la science du texte) وبذلك فإنه يتجاوز الأدب ليدرج إلى جانب اللسانيات، علم الأدب (La science de la littérature) ؛ غير أن ميدان «علم النص» أعم من ميدان «علم الأدب» الذي لايهتم مبدئيا إلا بالنصوص الأدبية، إلا أنه أقرب إلى علم البلاغة، بحيث يمكنه الادعاء بأنه ممثل حديث لها وذلك بحكم اهتمامه بدراسة الملفوظات اللغوية بكليتها والأشكال والبنى المختصة بها، والتي لايمكن وصفها بواسطة القواعد اللغوية كما هو الشأن في اللسانيات. وبعد أن يقدم مجموعة من المبادئ العامة المتعلقة بالتحليل النصي، منطلقا من تصور يقوم أساسا على استبدال السؤال الساذج: ما هو النص؟ بسؤال آخر: كيف نحلل النص؟ ينتقل إلى تحليل النص، ليتطرق بعدها إلى النص كمتوالية من الجمل، حيث يبين أنه بالإمكان أن نحلله تداوليا كمتتاليات أفعال كلامية (La Séquence d'actes de langage) : التداولية النصية.

أما بخصوص المضمون الإجمالي للنص (البنى الكبرى (Les macro-structure) فيبين أنها ترتبط بالقضايا المعبر عنها بجمل النص بواسطة ما يسمى: القواعد الكبرى (macrorégles) وهذه القواعد تحدد ما هو الأكثر جوهرية في مضمون نص متناول ككل، إذ إن القواعد الكبرى تلغي بعض التفاصيل وتقصر معلومة النص بالتالي على الأساس.

وفيما يلي أهم القواعد الكبرى :

- الحذف (أو الانتقاء) : (Supression (ou séléction))

- التعميم (Généralisation)

- البناء (Construction)

ولايمكن لهذه القواعد أن تعمل إلا على أساس معرفتنا بالعالم، ذلك أنه لو لم نكن نعرف أن الرحلة في القطار تقتضي الذهاب إلى المحطة وشراء تذكرة. . . الخ، لما أمكننا استبدال كل التفاصيل بفكرة «رحلة في القطار».

والقواعد المعروضة هي تقريبا مجردة ونظرية، فهي لا تقول شيئا حول كيفية تطبيقها من قبل المستعمل عند التأويل الواقعي لأحد النصوص(. . .).

ومفهوم البنية الكبرى هو مفهوم نسبي. فالقضية ليست في حد ذاتها قضية كبيرة، إنما هي كذلك بالنسبة إلى القضايا التي تشتق منها بواسطة قواعد كبرى، وهذا يعني أن القضية ذاتها يمكن أن تكون قضية كبيرة في نص ما وقضية صغيرة في نص آخر. غالبا يذكر موضوع النص في النص نفسه : في هذه الحالة، يعبر عن قضية كبيرة مباشرة في النص بواسطة جملة موضوعة (Phrase thématique) هناك أيضا وسائل أخرى للتعبير أو «التدليل» في البنى الكبرى التي يتضمنها أحد النصوص (عناوين، مفاتيح، حروف، خلاصات...).

- خطاطة النص الإجمالي : البنى الفوقية (Superstructure)

يقترح (فان ديك) نوعا من البنى الإجمالية للنص، يسميه البنى الفوقية، وهو مختلف عن البنية السيميائية ويتعلق بالترابط الداخلي الكلي للنص أكثر مما يتعلق بمضمونه مباشرة، ويشير بهذا الصدد أنه يمكن

الكلام كذلك على «أشكال نصية (Formes Textuelles) أو خطاطة نصية، وأشهر نموذجين من البنى الفوقية هي : الخطاطة السردية والخطاطة الحجاجية، وبناء عليه فإن البنى الفوقية يمكن أن تمثل تركيبا إجماليا للنص.

- أسلوب النص :

ويبين أن هذا النوع الأسلوبي قد يكون مقصودا أو غير مقصود أو حتى وظيفيا... حيث يستعمل المتكلم في هذه الحالة تغيرات ذات وظيفة في سياق معين، يمكن أن يكون هذا السياق نفسيا بالدرجة الأولى ؛ ذلك أن اختيار الكلمات والبنى الجملية والمتتاليات والخصائص الترابطية يخضع لحالة المتكلم الذهنية ومواقفه، والإنفعالات التي يريد التعبير عنها بهدف حث قارئه / المستمع على تفسير هذه المميزات الأسلوبية كإشارات إلى حالته النفسية في وقت معين، ومن جهة أخرى يمكن أن يكون التغيير الأسلوبي تعبيرا عن سياق اجتماعي.

إن الأسلوب المستعمل في حديث عادي بين أشخاص يعرفون بعضهم البعض يختلف عن ذلك المستعمل في كلام متبادل مع مجهولين في الشارع أو خلال اجتماع ذي طابع رسمي أو في جلسة محكمة، وهذا الاختلاف ليس ملموسا فقط على مستوى المفردات وإنما أيضا على مستوى اللفظ، وعلى مستوى العلاقات الترابطية وبنية النص الإجمالية وخطاطاته وموضوعاته.

- بنى النص البلاغية :

إن بنى النص البلاغية مرتبطة ارتباطا وثيقا بالبنية الأسلوبية وهذه البنى البلاغية تظهر على جميع المستويات النصية : مستوى الأصوات، والكلمات، والبنى الجملية، والعلاقات بين الجمل، والبنى الكبرى، والبنى الفوقية.

إن البنى البلاغية هي ذات طبيعة وظيفية خاصة، وتستهدف فعالية النص في مقام تواصلي وبتعبير آخر، فإن المتكلم يلجأ إلى البنى البلاغية

لأسباب استراتيجية. . . فإذا كانت البنى الأسلوبية هي تغييرات في إطار البنى النصية الممكنة، فإن ثمة مقولات جديدة في البنى البلاغية تلعب دورا خاصا وتمنح النص بنية إضافية. . . وهذه التغيرات هي :

- الحذف (Supression)
- الإضافة / التكرار (Adjonction / Répetition)
- المبادلة (Permutation)
- الإستبدال (Substitution)

إضافة إلى ذلك تنطوي بنى النص البلاغية على مضامين إدراكية تجذب وتوجه انتباه القارئ / المستمع وتحدد بالتالي الفهم المعرفي للنص.

وبعد هذه المعطيات ينتقل (فان ديك) للسياق فيقسمه إلى المستويات الآتية :

أ - السياق التداولي : النص كفعل كلامي (أو كأفعال كلامية)

Le Contexte pragmatique : le texte comme acte (s) de langage.

إننا لا ندرس الملفوظات اللغوية، وبالتالي النصوص، من حيث بناها فحسب، وإنما أيضاً من حيث وظائفها، لأننا لا نريد أن نعرف فقط «الأشكال» و «المضامين» والتي يمكن أن يتخذها نص ما، ولكن الوظائف الممكنة التي قد يؤديها بفضل الشكل والمضمون، ويقوم السياق التداولي على تأويل النص كفعل كلامي، أو كسلسلة أفعال كلامية، فالوعود والتهديدات والتأكيدات والأسئلة والأوامر. . . هي أمثلة على الأفعال الكلامية، ونقوم بفعل كلامي معين حين ننطق بجملة أو عدة جمل في سياق ملائم لها، ومهمة التداولية هي أن تحدد الشروط التي يجب أن تتوفر في كل فعل كلامي حتى يكون ملائما لسياق معين، كالتي يجب أن تتمتع بها الملفوظات.

ويتألف السياق التداولي من جميع العوامل النفسية والإجتماعية والتي تحدد نسقيا ملائمة الأفعال الكلامية. ومن هذه العوامل : المعرفة التي

يملكها مستعملوا اللغة، ورغباتهم وإرادتهم وأشياؤهم المفضلة، وأراؤهم وكذلك علاقاتهم الإجتماعية... وفي بعض الحالات يمكن أن تكون هناك أيضا قيود مؤسسّية على إتمام أفعال كلامية معينة.

المهم في التداولية النصية أن نحدد الشروط التي تمكن من ترتيب أفعال كلامية في متتاليات أفعال كلامية، وفوق ذلك علينا أن نتساءل حول كيفية ارتباط هذه المتتاليات بمتتاليات جمل أو ملفوظات النص المنطوق، ومثل ما كان من الضروري أن نعتمد بنى تداولية كبرى لنتمكن من تأويل المضمون الإجمالي لنص، فمن الضروري هنا الإعتماد على بنى تداولية كبرى، لنتمكن من الكلام على الوظيفة الإجمالية لنص معين، وهكذا فحين نتلفظ بنص مأخوذ بكليته، إنما نقوم أيضا بفعل كلامي إجمالي، أو أيضا «بفعل كلامي كبير (Macro-acte de langage)»، فقد لا تكون رسالة طويلة سوى طلب واحد... وهذه الأفعال الكلامية الكبيرة مشتقة من متتاليات أفعال بواسطة قواعد كبيرة (Macro-régles).

إن التأويل التداولي الإجمالي لنص معين أي تحديد الأفعال الكبيرة انطلاقا من سلاسل الأفعال الكلامية أمرمهم بالنسبة للتحيز الإدراكي (البرمجة) لسلاسل الأفعال الكلامية وتنفيذها وتوجيهها وتأويلها.

ب - السياق الإدراكي: فهم النصوص

Le Contexte cognitif : la comprehension des textes

ينطلق (فان ديك) من الافتراض التالي:

حتى يتمكن المستمع / القارئ من استخدام نص معين في مقام تواصلي ما عليه أن يفهم هذا النص، لذا فإنه سيركز أساسا على ما يسميه فهم النص، معالجا في سياقه النفسي وبالأخص (الإدراكي) وفي هذه الحالة فإن فهم النص يقوم على المخطط التالي:

إن مستعمل اللغة سوف يفهم بالدرجة الأولى الكلمات ومجموعة الكلمات والجمل، ومن ثم متتاليات الجمل. وبالإجمال يمكن القول إن

سياق الفهم يؤول إلى تحليل المعلومة المنقولة بواسطة بنية النص السطحية «وترجمتها» إلى مضمون، أي إلى معلومة مفهومية وبهذه الطريقة تحول الجمل إلى سلاسل من القضايا المعبر عنها بجمل النص المتتالية.

وفي هذا الصدد يشير (فان ديك) إلى مجموعة من المعطيات يجب أن تأخذ بعين الاعتبار في إطار توضيح (سياق الفهم)، (فهم النص) :

أ- استعانة المستعمل بمعرفته للعالم انطلاقا من مكتسباته المعرفية المخزونة في الذاكرة.

ب- تخزين القضايا في الذاكرة الطويلة الامد فلكي نستطيع أن نفهم نصا معينا، علينا أن نقيم بين جملة (طويلة) وأخرى الروابط الضرورية في الذاكرة العملية ،ثم نحرر هذه الاخيرة جزيئا من حمولتها وندخل فيها مجددا معلومات جديدة. وعليه فإن سياق الفهم ذو طابع دوري (Cyclique).

ج- لكي نتمكن من إضفاء ترابط خطي على نص معين يجب أن تحفظ بعض المعلومات في الذاكرة العملية، وهكذا لا يكون علينا باستمرار أن نسجلها من الذاكرة الطويلة الأمد.

هـ- لأجل فهم النص، فمن المهم جدا أن تكون كميات المعلومات الكبرى التي يمكن استخلاصها من نص ما منظمة ومبنية ومختصرة، ولهذا السبب تلعب البنى الكبرى دورا رئيسيا في المعالجة الادراكية لاحد النصوص، فالقارئ لا يستطيع أن يكرر النص كلمة كلمة ولا حتى جملة جملة عمليا ،فبعد أسابيع قليلة من قراءة النص، فلن يتذكر سوى أهم موضوعات هذا الاخير، وبتعبير آخر : إن بنية النص الكبرى هي التي تقاوم النسيان بوجه خاص. . .

والمبدأ العام الذي يلعب دورا في تخزين معلومة نصية واستذكارها واسترجاعها هو القيمة البنيوية لهذه المعلومة.

إن البنى الفوقية والبنى البلاغية هي منظمات مهمة للمعلومة النصية في الذاكرة، وفوق ذلك تلعب الخطاطات دورا كبيرا في إعادة إنتاج النصوص وبرمجتها، ومن الممكن أن يقوم عدة مستعملين للغة في مواقف مختلفة بإعطاء نص معين تفسيرات إجمالية متباينة جزئيا، ولتدارك ذلك بعض الشيء سنسلم بأن مجموعة كبيرة من العوامل تلعب دورا في فهم النصوص هو من ناحية أولى عام ودائم تقريبا بالنسبة للجماعة اللغوية وللفرد ومن ناحية ثانية لايصلح إلا لهذا المتكلم ولهذا الموقف المحدد، ويسمي (ديك) هذه العوامل المترابطة «الاستعداد الإدراكي» وهذا الاستعداد خالص بالضرورة، إنه لايعمل إلا في لحظة الفهم الراهنة، أمّا فيما بعد فيمكن أن يكون استعداد القارئ نفسه إزاء النص نفسه مختلفا.

ويدخل في صميم الاستعداد الإدراكي في الدرجة الأولى، معارفنا وآراؤنا وأفكارنا في الفكر الحاضر، هذه المعارف نسميها (أطرا)، وهي ذات اهمية قصوى بالنسبة إلى إدراك عملنا الاجتماعي وتفسيره وتوجيهه وبالتالي فهي تلعب دورا مهما في تفسير النصوص التي تحيل إلى أنماط الاحداث المذكورة، وهذا النوع من المعرفة -الإطار- يحدد تحت تاثير آمالنا الطبيعية، ما نعتقده ممكنا ومحتملا في الواقع الاجتماعي وبالتالي في النص أيضا.

وتسهم هذه العوامل في تحديد ما يراه أحد القراء ملائما ومهما في النص أي ما هو مهم بالنسبة إليه، عندما يكون في «ذهننا» موضوع محدد بسبب مهمة معينة أو حقل اهتمام معين أو أمنية خاصة، فإننا سنقوم بتحليل إدراكي لهذا النص إذا كنا نريد شراء سيارة من نوع معين، فإننا نقرأالإعلانات المتعلقة بهذا النوع أو نختار المعلومات المتعلقة خصيصا بهذه السيارة من النصوص التي تتناول أنواعا عدة.

وأخيرا تلعب هذه العوامل دورا في معالجة النصوص الإدراكية في المواقف والمعايير والقيم التي يعتمدها المتكلمون.

ج- السياق النفسي الاجتماعي : تأثير النصوص

(Le contexte socio-Psycologique : influence des textes)

والمقصود به المفعول الذي تحدثه النصوص على مستعملي اللغة سواء فرديا أو جماعيا، فلم يعد المقصود الآن هو التساؤل عما يفعله احد القراء أو المستمعين بنص ما، إنما ما هي العوامل الاجتماعية التي تلعب دورا في فهم النص ؟ وبالعكس ما هي جوانب الفهم السطحي التي يمكن أن تكون لَهَا مضاعفات اجتماعية ؟ بالرغم من كثرة الابحاث التجريبية (في غضون الخمسينات خاصة) والتي تتناول تأثير الاتصال الشفهي على الآراء والمواقف، فإن اختصاصيي علم النفس الاجتماعي مازالو يجهلون العوامل المحددة التي تلعب دورا في معالجة النص.

وثمة مبدأ أول «فعال» في تكوين وتغيير المعرفة والآراء والمواقف بواسطة النصوص، وهو مبدأ : (الوظيفية La fonctionnalite) فالشخص ينمي بخاصة نوع المعرفة والمواقف التي يستطيع استخدامها في نشاطه الادراكي والاجتماعي فالمعرفة الضرورية للتمكن من اتمام بعض الافعال و المواقف المهمة لتنظيم هذه الأفعال ولتفسير الواقع الإجتماعي تتكون قبل المعرفة والمواقف التي تفتقر إلى البعد الإجتماعي.

- المبدأ الثاني : هو الترابط الإدراكي، سوف نفضل المعرفة والمواقف التي تتفق مع المعرفة والمواقف المستوعبة قبلا.

- المبدأ الثالث : (Identification) تحقيق الذات اجتماعيا وشخصيا فمن المفضل أن تكون المعرفة والمواقف متفقة مع الآراء التفسيرية التي يكونها الفرد عن ذاته وعن علاقاته مع مجموعة معينة من الأفراد.

وبالنسبة لمعالجة النص، فهذا يعني أن الفهم، مثل تخزين المعلومة، موجه بالإستعداد الإدراكي الذي يعمل وفقا لمبادئ محددة، ويجب أن يكون انتظام عمل هذه السياقات ودقته موضوع أبحاث مستقبلية.

د- السياق الإجتماعي : النص في التفاعل والمؤسسة.

Le Contexte Social : Le texte dans l'interaction et l'institution.

إننا ونحن ننطق بنصوص في سياق معين إنما نقوم بأفعال كلامية، والأفعال الكلامية هي أفعال اجتماعية، تنتج في سياقات من التفاعل التواصلي، وهذا التفاعل يندرج في مقامات اجتماعية.

ويشير (فان ديك) إلى أن اللسانيات الاجتماعية وسوسيولوجيا اللغة تولي الكثير من الاهتمام للعلاقات القائمة بين السياق الإجتماعي واستعمال اللغة، لكن هذه الدراسات تتناول في المقام الأول العوامل السوسيولوجية الكبيرة (كالطبقات الإجتماعية مثلا) والبنى الخاصة للملفوظات (الأصوات، المعجم، التركيب)، وتحت تأثير نظرية التفاعل السوسيولوجي المصغر (Microsociologique) قبل كل شيء، وما يسمى بالمنهجية الاثنية (Ethnométhodologie) استمر الإهتمام بأشكال السلوك النصي النوعية، وخصوصا بالحوارات (الشائعة) في الازدياد.

هذه المواقف الإجتماعية «فريدة» (Uniques) بحد ذاتها، لكنها تتمتع مع ذلك بعدد كبير من الخصائص التي لها طابع أعم وحتى اصطلاحي، إنها أولا مقامات -نماذج (Situations - types) خاضعة تقريبا لمعايير معينة، وتتكرر باستمرار، وهكذا فثمة مقامات ذات طبيعة عامة أو خاصة مؤسسة أو غير مؤسسة تأخذ فيها الملفوظات قيمة فعل كلامي.

هكذا، فإن النص كفعل كلامي لا يحدده فقط المقام الإجتماعي (أو بالأحرى التأويل الذي يعطيه له المستعمل/ المشارك)، إنما المقام الإجتماعي نفسه تحدده كيفية استعمال اللغة(. . .).

من الواضح أن تأثير النص على المقام الإجتماعي وكذلك تأثير المقام الإجتماعي على النص يمارسان بواسطة الإستعداد الإدراكي للمستعمل، ذلك أن تفسير هذا الأخير للواقع الإجتماعي، مهما كان اصطلاحيا هو الذي يمارس تأثيرا على توجيه الإنتاج النصي وفهم النص، من خلال

آرائه ومواقفه ورغباته ومصالحه، وكما في المقام الاجتماعي فإن مصالح المشارك ليست دائما متوافقة، ولما كان المستعمل يرغب في أن يكون للملفوظه تأثير أفضل على مخاطبه في المقام التواصلي فإن مستعمل اللغة سيلجأ إلى استراتيجيات عدة والتي تلعب دورا في البني البلاغية والأسلوبية بمعزل عن هذا الدور الذي تلعبه النصوص / الأفعال الكلامية في التفسير الإجتماعي، أي على مستوى السياق الصغير (Micro-Contexte) يمكن أن تكون بعض النصوص فعالية على مستوى ما يمكن تسميته بالسياق الإجتماعي الكبير (Micro-Contexte-Social)، أي على مستوى المؤسسات. . . ولا تقوم العلاقة التفاعلية بين المؤسسات فقط، إنما أيضا بين المؤسسات والأفراد.

هـ - السياق الثقافي : النص كظاهرة ثقافية .

Le Contexte Culturel : Le Texte comme Phènoméne Culturel

إضافة إلى كون النص أحد عناصر التفاعل الإجتماعي، فإنه يمثل ظاهرة ثقافية أيضا، يمكن أن نستخلص منها بعض الإستنتاجات حول البنية الإجتماعية للجماعات الثقافية وغالبا ما يمكن أن نستخرج من النصوص والحوارات المستعملة في المقامات دور أعضاء المجتمع وحقوقهم وواجباتهم والقواعد والأعراف السائدة بينهم. . . وباختصار فإن تحليل النص هو طريقة ذات فعالية كبيرة في إطار التحليل العام للثقافة. . . وينهي «فان ديك» مقاله باستنتاجات مفادها أن :

الدراسة المنهجية للنصوص لا يمكن إلا أن تكون مشتركة بين عدة ميادين علمية ذلك أن النصوص لا تمتلك فقط بنيات نحوية، على مستوى الأصوات، والمعجم، والتركيب والدلالة، وإنما أيضا تمتلك بنيات أخرى مثل البنى الفوقية (الخطاطات) والبنى الأسلوبية، والبلاغية التي هي مسؤولة عن عدة مستويات من النص وفي هذا الإطار يبدو من المهم الربط بين مختلف المستويات بعضها ببعض في التحليل النصي، فغالبا ما تكون العلاقات الصوتية والتركيبية بين الجمل، مثلا تعبيرا عن

علاقات سيميائية، بين قضايا معينة أو عن علاقات تداولية بين أفعال كلامية.

لذا فإن تحليل النصوص يتطلب مقاربة متعددة الأبعاد تفرض الربط بين مختلف المستويات، لأن المقصود ليس هو فقط فهم النص وتحليله لذاته، إنما قبل كل شيء فهم وتحليل مختلف وظائف النص (الأفعال، النتائج. . .) في هذه السياقات.

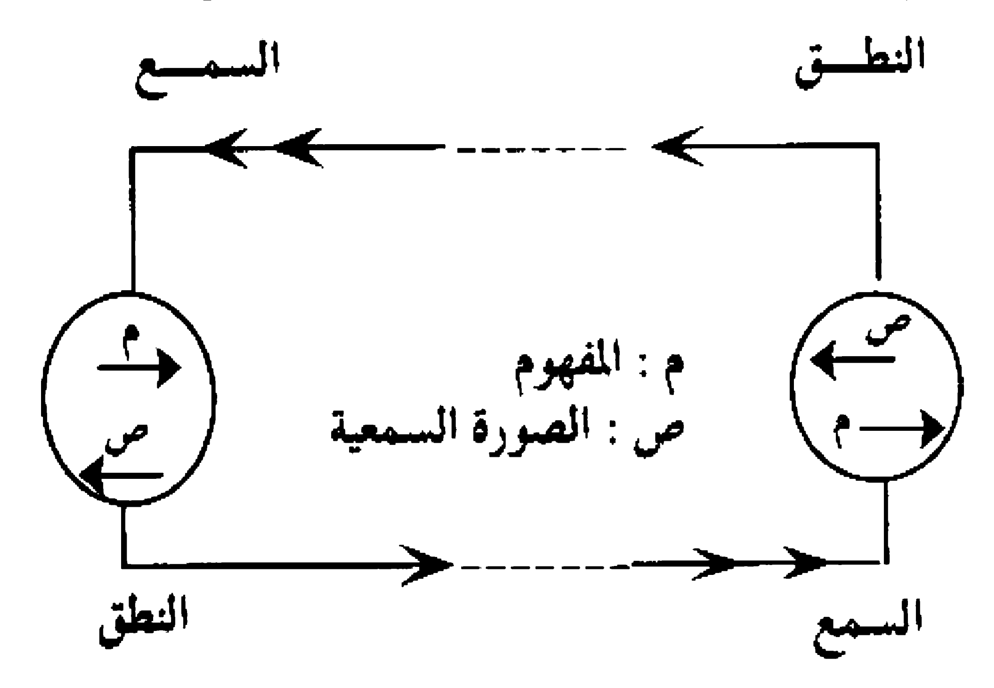
تحليل الخطاب
الانسجام

من ضمن القضايا الجوهرية التي تَمَّ الإهتمام بها في مجال تحليل الخطاب «الوظيفة التواصلية للغة»، والتي تقتضي وجود طرفين أساسين هما : المتكلم والمخاطب.

وقد ميز سوسير "F. de Saussure" بين نوعين من الوظائف اللغوية(1):

- وظيفة جوهرية : وقد وجدت اللغة لتحقيقها، وهي التواصل.
- وظيفة عرضية : كالتمثيل والإستدلال و الحجاج . . .

واعتبر سوسير التواصل اللفظي حدثا اجتماعيا يتم بواسطة الفعل الكلامي، ويتحقق ذلك عبر دائرة الكلام التي تفرض على الأقل وجود شخصين يتم بينهما التواصل كما يبين ذلك هذا الشكل :



(1) O. Ducrot/ Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langage p : 29-30.

وتضم دائرة الكلام هذه إلى جانب العمليات الفيزيائية (انتقال الشحنات الكهربائية والموجات الصوتية في الهواء) والفيزيولوجية (النطق والسمع) عمليتين نفسيتين :

- عملية التشفير (Encodage) من جانب المرسل.

- عملية فك الشفرة (Décodage) من جانب المستمع/ المرسل إليه.

وقد تعدى جاكبسون الإطار اللغوي المحض للتواصل إلى الإهتمام بمختلف الأنظمة السيميائية للتواصل البشري، وحدد العناصر المكونة لكل فعل تواصلي لساني في ستة عناصر ؛ وهي :
1- المرسل - 2 - المرسل إليه -3- الإرسالية -4- السياق -5- الشفرة -6- الصلة (القناة)، ومثل لها كما يلي :

Contexte

(سيـــاق)

(Message)

مـرســـــل.............. إرســـاليـــة..................... مرسل إليه

Destinateur **صـــلــــة** **Destinataire**

(contact)

شفـــرة

(code)

ولكل عنصر وظيفة معينة :

- **الوظيفة الإنفعالية أو التعبيرية (F. emotive)** وتركز في عملية التواصل على انفعالات المرسل وأشواقه وأحلامه.

- **الوظيفة الطلبية (F. Conative)** وتظهر في الإرساليات التي تتوجه مباشرة إلى المرسل إليه قصد إثارة انتباهه أو طلب قيامه بعمل ما.

- **الوظيفة المرجعية (F. Référentille)** ويتم التركيز فيها على السياق التواصلي أو على نقل معارف وحقائق... وهي الوظيفة المهيمنة في التواصل اليومي...

- **الوظيفة التنبيهية (F. Phatique)** وتركز على القناة المستعملة في التواصل... وتظهر في العبارات التي تهدف إلى إقامة التواصل أو الحفاظ عليه أو إطالته.

- **الوظيفة اللغوية الواصفة : (F. Méta-linguistique)** حيث يتم التركيز على الصفة المستعملة في التواصل اللساني بوصفها وتحليلها واستخراج القوانين المنظمة لها، وتبدو واضحة في عبارات المناطقة واللغويين والنحاة والبلاغيين.

- **الوظيفة الشعرية : (F. Poétique)** ويكون التركيز في عملية التوصل على الإرسالية، واتقان صياغتها واختيار علاماتها وتوزيعها بشكل مقصود. وقد انتقد هذا النموذج التواصلي من باحثين متعددين منهم (جورج مونان) (وفرنسيس جاك)[2] وغيرهما، وتم اختزال الوظائف اللغوية عند براون (Brown) ويول (Yolle) في وظيفتين[3] :

---

(2) أنظر :

- G. Mounim : la linguistique du Xxe siècle. PUF. 1972.

- F. Jacques : le Schéma de la communication est-il devenu un obstacle épistémologique? langage-connaissance et pratique. PUF. 1982.

- Catherine Kerbsat Orechioni : L'enonciation de la subjectivité dans la langage. Librairie Armond Colin Paris,.

(3) محمد الخطاب : لسانيات النص مدخل إلى انسجام الخطاب، المركز الثقافي العربي : ط. 1 ,1991 وص 56,52.

- **وظيفة نقلية** : فإحدى الوظائف التي تقوم بها اللغة هي نقل المعلومات أو تناقلها بين الأفراد والجماعات.

- **وظيفة تفاعلية** : أي قيام شكل من أشكال التفاعل اللغوي بين فردين أو بين مجموع أفراد عشيرة لغوية، لتأسيس وتعزيز العلاقات الإجتماعية والحفاظ عليها.

وتتميز مقاربة (براون) و (يول) في مجال تحليل الخطاب بأنها :

1- اختزلت وظائف اللغة في وظيفتين.

2- اهتمت بالمتكلم / الكاتب، والمستمع / القارئ وجعلتهما في رحم عملية التواصل، إذ لا يتصوران قيام عملية تواصلية بدون أطراف مساهمة فيها، حيث لا يتسنى فهم وتأويل الخطاب بصفة عامة إلا بوضعهما في سياقهما التواصلي زمانا ومكانا ومقاما.

فهذه عناصر تقوم بدور فعال في تأويل الخطاب، فغالبا ما يؤدي ظهور قول واحد في سياقين إلى تأويلين مختلفين وفي هذا الصدد يرى (هايمز 1964) أن للسياق دورا مزدوجا إذ يحصر مجال التأويلات الممكنة، ويدعم التأويل المقصود، ويصنف (هايمز) خصائص السياق في :

- المرسـل : وهو المتكلم و الكاتب الذي ينتج القول.

- المتلقـي : وهو المستمع أو القارئ الذي يتلقى القول.

- الحضـور : وهم مستمعون آخرون حاضرون يساهم وجودهم في تخصيص الحدث الكلامي.

- الموضـوع : وهو مدار الحدث الكلامي.

- المقـام : وهو زمان ومكان الحدث التواصلي، وكذلك العلاقات الفيزيائية بين متفاعلين بالنظر إلى الإشارات والإيماءات والتعبيرات.

- القنـــــاة : كيف تم التواصل بين المشاركين في الحدث الكلامي : الكلام، كتابة، إشارة . . .

- النظـــــام : اللغة أو اللهجة أو الأسلوب اللغوي المستعمل.

- شكل الرسالة : ما هو شكل الرسالةالمقصود : دردشة، خرافة، رسالة غرمية.

- المفتـــــاح : ويتضمن التقويم، هل كانت الرسالة موعظة حسنة، شرحا مثيرا للعواطف . . .

- العـــرض : أي ما قصده المشاركون ينبغي أن يكون نتيجة للحدث التواصلي وبإمكان المحلل أن يختار الخصائص الضرورية لوصف حدث تواصلي خاص، بمعنى أن هذه الخصائص ليست كلها دورية في جميع الأحداث التواصلية، فكلما توفر المتلقي على معلومات من هذه المكونات تكون أمامه حظوظ قوية لفهم الرسالة وتأويلها، أو وضعها في سياق معين من أجل أن يكون لها معنى فعلي على الأقل، ويجب معرفة من هو المتكلم / المستمع وزمان ومكان انتاج الخطاب.

وبالإضافة إلى محاولة (هايمز) هناك محاولة أخرى قام بها (ليفيش-1972)، وكان غرضه من تحديد خصائص السياق يختلف عن غرض (هايمز)، ويتمثل في معرفة صدق أو كذب جملة ما ،فالغرض كما يتضح منطقي بالأساس وهذه الخصائص كما حددها هي :

- العالم الممكـن : بمعنى أخذ الوقائع التي قد تكون ، أو يمكن أن تكون أو هي مفترضة بعين الإعتبار.

- الــزمـــــن : أخذ الزمن بعين الاعتبار : الجمل، ظروف الزمان : اليوم، الأسبوع المقبل.

- المكـــــــان : أخذ المكان بعين الاعتبار.

- المتكلـــــــــــم : اعتبار الجمل التي تتضمن ضمائر المخاطب (أنت أنتم).

- الشيء المشار إليه : اعتبارالجمل التي تتضمن أسماء الإشارة (هذا ، هؤلاء . . .).

- الخطاب السابق : اعتبار الجمل التي تتضمن عناصر مثل : (هذا الأخير ، المشار إليه سابقا).

- التخصيــــص : سلسلة أشياء لامتناهية (مجموعات أشياء، متتاليات أشياء).

والملاحظ أن الخصائص التي حددها كل من (هايمز) و(ليفيش) متقاربة ولكي يبرز (براون) و(يول) أهمية السياق في التأويل يقدمان أمثلة معزولة عن سياقاتها الأصلية التي ظهرت فيها «سياقات شاذة» بحيث يقرأ المحلل النص وعليه أن يهيئ مميزات السياق الذي يمكن أن تكون قد وردت فيه.

لينتهي إلى إثبات أن الخطاب القابل للفهم والتأويل هوالخطاب القابل بأن يوضع في سياقه، إذ كثيرا ما يكون المتلقي أمام خطاب بسيط للغاية من حيث لغته ولكنه قد يتضمن قرائن تجعله غامضا غير مفهوم بدون إحاطة بسياقه، ومن ثم فإن للسياق دورا فعالا في تواصلية الخطاب وفي تحقيق انسجامه بالأساس، وما كان ممكنا أن يكون للخطاب معنى لولا الإلمام بسياقه.

جمالية التلقي

بعد معالجتنا لمجموعة من القضايا المرتبطة بالسياق بمعناه الواسع ننتقل إلى نظرية التلقي لنقف من خلالها على عودة القارئ إلى مسرح الأدب إلى جانب المؤلف و النص باعتباره عنصرا مركزيا في عملية القراءة، وقد نشأت هذه النظرية منذ الستينات (1967) بألمانيا الغربية وتنسب إلى (جامعة كونستانس) (Université de Constance) ومن أشهر ممثليها (هانس روبير ياوس) (Hans Robert Yauss) وولف غانغ إيزر (Wolfgang Iser)، وتهتم هذه النظرية بإدراج المتلقي أو القارئ (Le lecteur) ضمن الظاهرة الأدبية بحكم أن النص الأدبي لايتحدد فقط بالسؤال: مالأدب ؟ أو من يتكلم في النص ؟ أو ما هو الموضوع[1] ؟ بل بالعلاقة التفاعلية بين النص والقارئ، وقد أصبح القارئ العنصر الأكثر إثارة للاهتمام[*] .

وتدعو جمالية التلقي إلى تجاوز نظرية الأدب الكلاسيكية وإعادة بناء الأدب على أسس نظرية ومنهجية جديدة، ويشكل الإهتمام بالمتلقي أو القارئ الأساس النظري في هذا التصور النقدي لأنه يلعب الدور المركزي

(1) Antoine Compagnon. Le Démon de la théorie littérature et sens commun. ed. Seuil. 1998, p. 147.

(*) يعمل النقد الأدبي على تحليل موضوعه تحليلا منهجيا انطلاقاً من أربعة عناصر : المؤلف - النص - المرجع - المتلقي، ويقوم على استحضار عنصر من هذه العناصر والتركيز عليه أو بعضها أو كلها، وبناء عليه تقسم الممارسة النقدية إلى أربعة أقسام :
- النقد المرجعي : ويركز أساسا على عنصر المرجع متمثلا في تاريخ الأدب والمناهج المنتمية بشكل عام إلى سوسيولوجية الأدب.
- النقد النصي : ويركز على النص كالنقد البنيوي البلاغي والأسلوبي.
- نقد المؤلف : ويمثله النقد البيوغرافي والنقد السيكولوجي.
- نقد المتلقي : أو المقاربة التداولية ويمثلها النقد المندرج تحت جمالية التلقي.

في تشكل العمل الأدبي وهذا لا ينفي وجود آراء متعددة وسابقة التفت أصحابها إلى القارئ ومسألة القراءة (سارتر وبريخيت و بودلير. . .) إلا أنها لم ترق إلى مستوى تنظيرات «جمالية التلقي» لأن هذه الأخيرة تعاملت مع مسألة القراءة والقارئ بوعي نظري مؤسس على أدوات إجرائية ذات أسس منهجية متماسكة، وقد ساهمت ظروف تاريخية في توجيه الباحثين الألمان بعمق نحو التلقي في الوقت الذي كانت فيه البنيوية طاغية على الثقافة الفرنسية والفرنكفونية، وتنبني هذه النظرية على ثقافة واسعة مستمدة من حقول معرفية عديدة لاتعتمد النقل بل الحوار، ومنها، البحث البنيوي والشعرية البنيوية، والتأويلية والظاهراتية (Ingarden) و(Ricoeur)، و(Husserl) والارسطية والكانطية والتحليل النفسي ونظرية الفعل ونظرية التفاعل، والمنهج التجريبي والفلسفة الماركسية. وتعتبر القراءة عندهم فعلا مركبا، ذلك أنها ليست فعلا بسيطا نقوم به ونحن نمرر البصر على السطور، وليست أيضا بالقراءة التي نكتفي فيها بإعادة تلقي الخطاب بشكل سلبي اعتقادا منا بأن معنى النص قد صيغ نهائيا وحدد، فلم يبق إلا العثور عليه كما هو، أو كما كان نية في ذهن الكاتب، إن القراءة عندهم أشبه ما تكون بقراءة الفلاسفة للوجود إنها فعل خلاق، إن القارئ وهو يقرأ، يخترع ويخترق ويتجاوز ذاته نفسها مثلما يتجاوز المكتوب أمامه، لكن السؤال المطروح كيف نجعل القارئ موضوعا لدراسة ملموسة ؟.

للإجابة على هذا السؤال سنركز بالأساس على (ياوس Yauss) من خلال بعض الاشارات الواردة في كتابة «نحو جمالية التلقي» نظرا لأهمية هذا الكتاب[2].

إن أول قضية تطرح بالنسبة (لياوس) ويحاول معالجتها بشكل موسع ودقيق تتعلق بكيفية إعادة بناء تاريخ للادب يقوم على بنية التلقي، لا

(2) Hauss Robert Yauss : Pour une Esthétique de la reception. Paris. ed. Gallimard. 1979.

على أساس التسلسل الزمني تبعا للحقب والعصور، وبذالك فإن «ياوس» يتجاوز التاريخ التواقتي (الدياكروني) الذي يستنسخ حركة التاريخ العام، ويعوضه بتأريخ توقيتي يتتبع حركة تفاعل النص مع القارئ، فبدلا من التساؤل عن تاريخ النصوص، يتساؤل عن تاريخ تلقي هذه النصوص.

انطلاقا من الانتقادات التي وجهها (ياوس) للاتجاهات الوضعية الشكلانية والماركسية، حاول بناء تصور جديد لمفهوم المتلقي، فلم يعد هذا العنصر الأخير هامشيا وخارجيا عن العمل الأدبي، نظرا لأن هذا العمل لاتكمن قيمته إلا في الأثر الذي يحدثه في المتلقي، وبذلك يظهر أن المتلقي عند (ياوس) طرف أساسي وضروري في تقييم العمل الأدبي، فتاريخ الأدب برمته لا يقوم عنده إلا على أساس تاريخ تلقي النصوص الأدبية، وبهذه المعطيات فتح (ياوس) على الأدب مجالا أوسع هو : جمالية التلقي.

فقراءة النص من طرف المتلقي عند ياوس لا تدخل ضمن إطار استهلاكي محض، بل هي مرحلة ضرورية لإتمام عملية إنتاج العمل الأدبي نفسها، والذي يظل في حاجة إلى أداة تحققه وتجعله راهنا، وهذه الأداة هي القراءة، وأقامة مثل هذه العلاقة لا يعني :

- أن المتلقي الأول للنص يمنحه تحققه (Concrétisation) التام والنهائي، بل إن من خصائص العمل الأدبي أنه يخلق قراء جددا في كل حقبة، فلكل زمن قراؤه كما أن لكل قارئ قراءته، فالأسئلة هي أسئلة تتجدد عبر تاريخية التلقي بواسطة تأويل المتلقي للأجوبة التي يرى أن العمل الأدبي يقدمها.

- إن هذه العلاقة لا تقوم على فراغ فقدرة المتلقي على منح النص الأدبي تحققه وراهنيته قدرة يكتسبها من خلال قراءة النصوص السالفة التي تشكل مخزونا مرجعيا يتم تلقي النص الجديد على أساسه، فيتشكل لدى المتلقي دائما أفق للانتظار يعمل النص الجديد إما على تدعيمه أو تغييره أو خرقه.

ويعتبر (أفق الإنتظار) هو الأطروحة الثانية التي تكتسي أهمية قصوى في بناء نظرية التلقي عند «ياوس»، فحين يشرع القارئ في تلقي عمل أدبي، فإن هذا العمل قد يستجيب لأفق انتظاره وينسجم بالتالي مع المعايير الجمالية التي تكون تصوره الخاص للأدب، وقد تنتهك هذه المعايير وتخالفه، مما يجعل هذا العمل الأدبي يدخل في صراع مع أفق انتظار المتلقي.

ويسمح أفق الإنتظار حسب «ياوس» بإبراز أهمية السمة الفنية للعمل، وهكذا فإن جمالية التلقي بإعادة تشكيلها لأفق الإنتظار في لحظات تاريخية مختلفة تثبت تاريخية العمل وحداثته، وتعيد النظر في البداهة الخاطئة التي تقول بوجود ماهية شعرية لازمنية دوما معاصرة، يكشف عنها النص الأدبي وتتمثل في وجود معنى موضوعي ومقرر بشكل نهائي، ويمكن لأي شارح في كل عصر أن يدركه فورا.

ويسمى الفرق بين كتابة المؤلف وأفق انتظار القارئ المسافة الجمالية واعتمادا عليها يتم التمييز بين ثلاثة أفعال (Actes) عند القارئ:

- الإستجابة، ويترتب عنها الرضى والإرتياح لأن العمل الأدبي يستجيب لأفق انتظار القارئ وينسجم مع معاييره الجمالية.

- التغييب، ويترتب عنه الإصطدام لأن العمل الأدبي قد خيب أفق انتظار القارئ.

- التغيير، أي تغيير أفق الانتظار.

والمسافة الجمالية هي التي تميز المتعة الجمالية عن كل أشكال المتعة، يقول (ياوس): إن حالة المتعة الجمالية بتخليصها الوعي المصور من ضغط العادات والمصالح تمكن الإنسان الغارق في الممارسة اليومية من التحرر من أجل تجارب أخرى.

ويتم هذا التحرر من ثلاثة مستويات:

- مستوى الإنتاج : حيث يخلق الوعي عالمه.

- مستوى التلقي : حيث يستغل الوعي، بما هو نشاط استقبالي إمكانية تجديد إدراكه للعالم.

- مستوى التأمل : والذي يستخلص القواعد من الفعل.

ويظهر من خلال ما تقدم أن ياوس حاول إعادة بناء تاريخ جديد للأدب جعل فيه المتلقي بؤرة العمل الأدبي، والمانح للأدب سيرورته التاريخية والمحدد لجماليته.

أما بالنسبة (لايزر) (Wolfgang Iser) فبغية وصف التفاعل القائم بين النص والقارئ عمد إلى مفاهيم اقتبسها من منظرين سابقين قبل أن يدخل عليها تحويرات متنوعة، ولعل أبرزها : القارئ الضمني (Le Lecteur implicite) الذي يشكل عنوانا بارزا لأحد كتبه الذي ظهر سنة (1972).

والمتلقي عنده عنصر بالغ الأهمية، ليس من أجل بناء تاريخ جديد للأدب، أو من أجل دراسة تاريخ تأويل النصوص كما عند (ياوس) بل من أجل بناء نظرية حول الأثر الذي يحدثه العمل الأدبي في المتلقي باعتبار هذا الأخير طرفا ملازما للنص يتبادل معه علاقة التأثير والتأثر، وأثناء القراءة يحدث التفاعل الأساسي في كل عمل أدبي بين بنيته ومتلقيه، هذا التفاعل الذي تقوم عليه نظرية الوقع الجمالي (L'effet esthétique) عند (ايزر) لايمكنه أن يتحقق خارج فعل القراءة أي خارج التلقي.

وقبل أن يحدد معالم القارئ الضمني الذي يقترحه فإنه يصنف أنواع القراء حسب ما قدمه باحثون آخرون إلى :[3]

- القارئ النموذجي : (L'archilecteur) عند ريفاتير (Riffaterre) والمقصود به مجموعة قراء يملكون قدرات مختلفة ويعملون جميعا على

(3) W.ISER : L'Acte de Lecteur : théorie de l'effet esthtéique. p 70.

تلمس الدرجة العليا من فك النص باعتباره مظهرا أسلوبيا (البنيوية الشعرية).

- القارئ الخبير (Le Lecteur informé) عند فيش (Fich) وهو الذي ينبغي أن :

- يتكلم بطلاقة اللغة التي كتب بها النص.

- يمتلك معرفة دلالية كمستمع تمكنه من الفهم.

- يمتلك قدرة أدبية.

وقد اعتمد (فيش) في تطوير مفهوم القارئ الخبير على النحو التوليدي.

- القارئ المقصود (Le Lecteur Visé) عند «وولف» (Wolff) وهو فكرة القارئ كما تشكلت في ذهن الكاتب، وهذه الصورة يمكن أن تأخذ عدة أبعاد في النص (سوسيولوجيا الأدب).

ويطرح (ايزر) مختلف هذه النماذج ليخلص إلى ضرورة تجاوز الأسلوبية البنيوية والنحو التوليدي - التحويلي وسوسنيولوجيا الأدب إلى القارئ نفسه. وقد خصص فصلا من كتابه (القارئ الضمني) لسيرورة القراءة، ولايقصد (ايزار) بالمتلقي القارئ المتجسد والفعلي للنص بل يقصد به قارئا ضمنيا تجريديا، وفي هذا السياق يقول (إيبش/ Ibsh) طبقا لإهتمام المعرفة الفينومولوجية، فإن الأمر لايمكن أن يتعلق بقارئ ملموس تاريخي أو معاصر، بل إن القارئ المقصود هو بالضرورة تجربة، وحادث عارض تبنى خصائصه قبليا باستقلال عن كل وجود حقيقي،[4] ويميز (ايزر) بين نمطين من القراء :

---

(4) ايبش : "التلقي الأدبي" ترجمة محمد برادة. دراسات سيميائية أدبية لسانية ع 6 . 1992، ص 17-27.

- القارئ المعاصر : Le Lecteur Contemporaine

- القارئ المثـالي : Le Lecteur Ideal

القارئ المعاصر هو المتلقي الذي يباشر عملية القراءة أي يحققها، أما القارئ المثالي فهو ذلك المتلقي النموذجي الذي يفترضه النص الأدبي، والذي يملك تماما نفس سنن الكاتب حتى يتمكن من فك المعنى الكلي للعمل التخييلي، إنه المتلقي مجرد من وضعيته التاريخية، أي من بعده الممكن (اللامتحقق) ثم إنه تخييل مجرد من الأساس الواقعي.

والقارئ الضمني عند (ايزر) ليس له وجود فعلي، فهو لا يكتسي أي وجود (امبريقي Empirique) لأنه يقع داخل النص ذاته، فالنص لا يصبح متحققا إلا إذا قرئ في ظل شروط التحقق التي يقدمها النص لقارئه الضمني، ويتخذ مفهوم القارئ الضمني عنده صبغة تفاعلية، فهو من جهة يجعل عنصر المعنى مسألة غير مبررة دون ربطه بعملية الوقع الناتج عن عملية القراءة، كما يجعل القارئ من جهة أخرى، عنصرا محايثا للنص، فالمتلقي لا يوجد في مقابل النص أو النص في مقابل المتلقي بل إنهما يوجدان معا داخل بنية النص، ويعمل مفهوم القارئ الضمني على تحويل البنيات النصية إلى أفعال تمثيلية في مجموع تجارب القارئ ويلح «ايزر» أخيرا على ما يسميه بالذخيرة (Le répértoire) وهو مجموع المعايير الإجتماعية والتاريخية والثقافية التي يحملها القارئ كمعارف ضرورية أثناء القراءة.

وفي سياق الحديث عن القارئ نشير إلى مساهمة (أمبرتو ايكو) الذي استفاد من منجزات الدرس السيميائي المعاصر خاصة سيميائية «بيرس» الذي قسم العلامة إلى : ممثل ومؤول وموضوع، واعتبر «ايكو» المؤول العنصر الدينامي الذي يمنح للمتلقي امكانية انجاز القراءة، قراءة مساعدة

للنص المقروء، ونجد طرحا واضحا لنظريته في كتابه «القارئ في الحكاية» (Lector in Fabula) الذي يقوم على خلفية نظرية هي : السيميوطيقا الأدبية[5]

إن النص الأدبي في نظر (ايكو) غير مكتمل نظرا لأن الأمر لا يتعلق بالجانب اللساني الذي يسعى دائما إلى تحديد النص الأدبي فقط بل أي إرسالية بما في ذلك الجمل و الكلمات المعزولة، التي ترد خارج النسيج التركيبي العام. إن النص الأدبي يتميز عن باقي الأصناف التعبيرية الأخرى، ببنائه المركب الذي تتداخل فيه عدة عناصر ومكونات فهو نسيج علاقات معقدة. إن العمل الأدبي عمل مفتوح، نسيج فضاءات بيضاء ينبغي ملؤها إنه عبارة عن آلة كسولة أومقتصدة ذات طابع اختزالي يحيا بما يقدمه القارئ من قراءات ودلالات وما يملؤه من فضاءات بيضاء. ما من نص إلا ويحمل رسالة ما وبمجرد انتقاله من وظيفته التعليمية إلى الوظيفة الجمالية، فإنه يترك للقارئ المبادرة التأويلية، وكامل الحرية في فهمه وملئه، والمتلقي/ القارئ عند (إيكو) لا يتعامل مع الجزئيات التي تشكلها الجمل أو مقاطع الجملة، بل إنه يتعامل مع النص بأكمله باعتباره نسقا سيميائيا، وبذلك يظهر أن القارئ عنصر يساهم بفعالية في إخراج النص في صيغة مكتملة، إن النص يبدأ، والقارئ ينهي النص، يتعمد خلق فراغات، وينتظر من يملأها، إنه يفترض بل يستوجب تعامل القارئ كشرط للتحيين (Actualisation)، لهذا السبب يرى (إيكو) أن الجزء الأكبر من فعل النص يحتاج إلى مساعدة القارئ من أجل إتمام فعله، وإلا ظل ناقصا، وكلما كانت قدرة القارئ قائمة ومتوفرة، فإن النص يتحقق ويلقى القبول، أما إذا كانت هذه القدرة غير متوفرة لدى القارئ، فإن النص يرفض في حينه في انتظار قارئ قادر على تأويله بمعنى آخر أن النص يتوقع قارئه.

(5) Umberto ECO : Lector in Fabula. Le rôle de lecteur, ed, Grasset, Paris 1985.

والقارئ الذي يتحدث عنه (إيكو) هو القارئ النموذج (Lecteur Modél) القادر على تحليل النص على النحو الذي افترضه المؤلف والذي بمقدوره أن يشتغل تفسيريا بنفس الدرجة التي يشتغل بها المؤلف ابداعيا، وكثير من النصوص الإبداعية التي تكشف عن نوعية قرائها النموذجيين بافتراضها قدرة موسوعية جد متميزة أي ركام معرفي، وخلفية مرجعية ثقافية جد واسعة، لا يمكن أن تتوفر لدى أي قارئ عادي، لذا فمفهوم التأويل* (Interprétation) يدخل دائما جدلية بين استراتيجيتين: استرتيجية المؤلف، وجواب القارئ النموذج، والقول إن المؤلف يتوقع قارئه النموذجي لا يعني أنه يامل في وجوده فقط، بل أكثر من ذلك يعمل على تأسيسه داخل النص ذاته، فالنص عند (إيكو) لايرتكز على قدرة المتلقي إنه يخلق هذه القدرة، لكن هل معنى هذا أن النص لا يقدم للقارئ إلا امكانية واحدة لقراءته ؟.

جوابا عن هذا السؤال يميز (إيكو) بين النص المغلق (Texte fermé) والنص المفتوح (Texte ouvert) فالنص المغلق يتمثل في ذلك البناء النصي الذي لا يمكن تاويله إلا من طرف ذلك القارئ النموذجي الذي يقترحه النص نفسه والمحدد بدقة، أما النص المفتوح فإنه وإن اقترح قارئه النموذجي فإنه يبقى قابلا للقراءات المتعددة والتأويلات المختلفة، ويعطي (إيكو) أمثلة لذلك.

ويدخل (ايكو) التلقي مجالا آخر أسماه (بالتعاون النصي) (La coopération Textuelle)(*) القائم على أساس الحوار المتبادل بين المؤلف والقارئ داخل النص، وقد تميز عمل (ايكو) بكونه طور الأسئلة التي

(*) يشير (إيكو) إلى أن النص بقدر ما يمضي من وظيفته التعليمية إلى وظيفته الجمالية فإنه يترك للقارئ المبادرة التأويلية، حتى ولو غلبت فيه الرغبة في أن يكون النص مؤولا وفق هامش من الأحادية كاف. إن النص يتطلب أن يعينه أحد ما ليحقق وظيفته.

(*) وقد ترجمه البعض بالتعاضد النصي (أنظر القارئ في الحكاية/ التعاضد التأويلي

طرحت منذ الستينات حول إمكانية تقديم قراءة نقدية متماسكة ومنسجمة، ويتجلى ذلك من خلال انتقاله من النص كعالم أو كبنية إلى النص كاستراتيجية، ثم وإنه قد حقق انطلاقا من هذا الطرح مجموعة من العمليات العميقة للكشف عن الإشتراك النصي من خلال تحديد مفهوم النص والسياق ومستويات التعاون النصي وعلاقة القارئ بالنص.

الفصل الثاني

السياق عند العرب

نمـــوذج

"علم أصول الفقه"

بعد أن عالجنا بعض المقترحات الغربية حول «السياق» في القسم السابق من الدراسة ننتقل إلى التراث العربي، إيمانا منا بأن هذا التراث غني وقد ارتبط بممارسات معرفية عديدة فرضت حضور معطيات عامة تتعلق «بالسياق» لكن الركون إلى التراث العربي لا يعني أن طروحات الفكر العربي توازي وتقف على عتبة واحدة مع الطروحات الغربية، وإنما نقصد أن هناك اسهامات لاتقل أهمية وخصوبة عما يقدمه الغرب.

وهناك مباحث عديدة يمكن للباحث الإنطلاق منها : كالبلاغة والنقد الأدبي، والتفسير، وعلم أصول الفقه والفلسفة والتصوف، وإن كانت هذه المباحث ليست متماثلة، فالبلاغة تهتم بالخطبة والشعر والقرآن أما النقد فيهتم بالخطاب الشعري أساسا، أما التفسير فيجعل محوره هو النص القرآني، وكل ما يتعلق به من قضايا، وعلم أصول الفقه(*)، علم يتوصل به إلى استنباط الأحكام الشرعية من الأدلة التفصيلية، وله روافد يستقي منها أدلته، وهي : علم الكلام وعلم اللغة العربية والأحكام الشرعية.

وسنتعامل أساسا مع هذا المبحث «علم أصول الفقه» معتمدين الإنتقاء ومركزين بالدرجة الأولى على بعض الجوانب التي تبرز انتباه الأصوليين إلى «السياق» بمعناه الشمولي والعام أو بمعناه الضيق، بهدف ابراز وعيهم

(*) الواقع أن تعريف "علم أصول الفقه" يطرح مشاكل متعددة ومتداخلة في نفس الوقت، الشيء الذي يجعل الباحث أمام تعريفات عدة، تواردت على ألسنة علماء الأصول، واختلفت باختلاف نظرة كل منهم ومفهومه لهذا الواقع، مما يجعلنا نتبنى تعريفا مباشرا، يختزل كل الخلافات ويستوعبها لتأسيس مفهوم عام وشامل نعتقده الأساس المكون لعلم الأصول.

بقيمة السياق ومكانته ودوره في تحقيق «الإنسجام النصي»، وما يهمنا بالذات هو استخراج بعض تصوراتهم في الموضوع، ونظرا لصعوبة تتبع كل آرائهم وتشبعها سنقتصر على الجانب اللغوي في مبحثهم لكونه يقدم صورة عن وعيهم واهتمامهم بالسياق.

لقد حصر علماء أصول الفقه عامة مباحث علم الأصول في الأقسام الأربعة التالية :

- القسم الأول : الأحكام الشرعية.
- القسم الثاني : الأدلة الشرعية.
- القسم الثالث : طرق الاستدلال (القواعد الأصولية اللغوية).
- القسم الرابع : أحكام الإجتهاد.

وقد أعار الأصوليون اهتماما خاصا للغة بهدف استنباط الأحكام الشرعية من النصوص القرآنية والسنة، معتمدين في ذلك على مقدمات عامة عن أصل اللغات، وعن الأسماء اللغوية والعرفية والشرعية، وعن الحقيقة والمجاز وقدموا في الموضوع بحوثا ونقاشات جديرة بالعناية والاهتمام، تفوق ما قدمه اللغويون.

ويبدو أن دوافع الأصوليين أساسا كانت تسعى إلى محاولة كشف وتحليل دلالة الألفاظ وعلاقتها بالمعاني، وقد وجدوا لهذه العلاقة عدة اعتبارات وقسموها إلى أربعة أقسام :

- اللفظ باعتبار المعنى الذي وضع فيه : وعالجوا في هذا القسم : الخاص و العام و المشترك.
- اللفظ باعتبار المعنى الذي استعمل فيه : وعالجوا فيه الحقيقة والمجاز.
- اللفظ باعتبار ظهور المعنى وخفائه : وقسموه إلى ظاهر وخفي.

- اللفظ باعتبار طرق الوقوف على مراد المتكلم.

هذه الأقسام الأربعة يمكن اعتمادها لدراسة مسألة الدلالة اللغوية (Sémantique) وكذلك بعض القضايا التداولية (Pragragmatique) فهي تبرز اهتمام الأصوليين بمختلف أشكال العلاقة التي تربط اللفظ بالمعنى سواء على المستوى المعجمي أو التركيبي أو السياقي، فقد أدركوا أن للسياق دورا مهما فهو يتدخل في الإنجاز، ويكاد يكون فهم الخطاب أحيانا موقوفا عليه، يقول الآمدي إن دلالة الألفاظ ليست لذواتها بل هي تابعة لقصد المتكلم وإرادته، و سأحاول فيما سأقدمه أو أعرض له من آراء مختلفة للأصوليين أن أقارب الجوانب السياقية في مبحثهم، سواء تعلق الأمر :

- بمسألة الدلالة المفردة.

- أو بالحقيقة والمجاز.

- أو وضوح الدلالة وخفاؤها.

والتي يسعى الأصوليون بها إلى ضبط مختلف أشكال العلاقة بين الدال والمدلول، وقد توصلوا إلى تقسيمات دقيقة، ومصطلحات متميزة تبين تفرد آرائهم خاصة في الكتابات الأصولية المتأخرة، فاللغة عند الأصوليين ألفاظ تدل على معان، ويمكن أن نستمد المعاني من الألفاظ بطريقتين :

1 - إما بالحصول على المعنى المطلق عن طريق الالفاظ والعبارات المطلقة (الدلالة الأصلية للفظ) أو المعنى الأول.

2 - وإما بالوصول إلى المعنى عن طريق الألفاظ والعبارات المقيدة «الدلالة التابعة» أو المعنى الثاني.

وفيما يلي عرض لبعض القضايا التي رأينا فيها حضورا للسياق ووعيا بقيمته عند الأصوليين.

1 - دلالة اللفظة المفردة :

أدرج الأصوليون في هذا المبحث مسائل عديدة نخص بالذكر منها : العام والخاص والمشترك، وكلها مباحث يحضر فيها السياق بمعناه الضيق أو الواسع.

1 - العام : وهو لفظ يدل حسب وضعه اللغوي على أفراد غير محصورين على سبيل الشمول والإستغراق، ولافرق بين أن تكون دلالته على ذلك بلفظه أو بمعناه[1]. مثال ذلك :

- على مستوى اللفظ ⟵ المسلمين، الرجال.
- على مستوى المعنى ⟵ ما ، من. . .

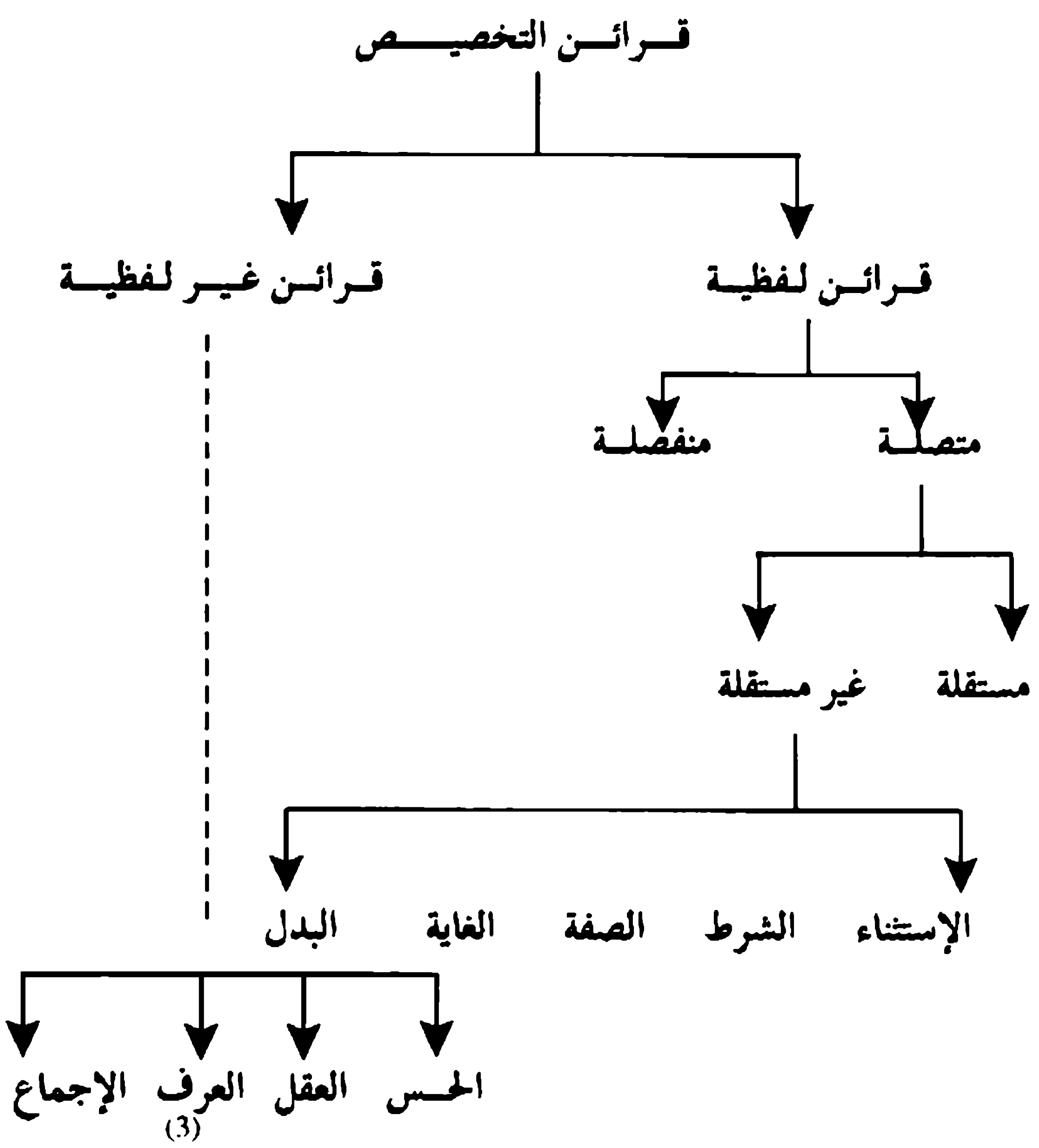
ويعتبر هذا البحث من أهم مباحث الدلالة عند الأصوليين، إذ يدخله الإجتهاد ويتطرق إليه الخلاف بينهم من جهة دلالته وصيغته وشمول حكمه لإفراده وحجته، واختلافهم حول الحكم أدى بهم إلى طرح مسائل هامة تعتبر من صميم مبحث الدلالة التواقتي المعاصر، كقولهم (ما من عام إلا خصص) فلفظ (الصلاة) وضع في اللغة لمطلق الدعاء ثم خصصه الإصطلاح الشرعي بدعاء مخصوص مع ما انضاف إليه من أقوال وأفعال «ويعتبر موقف الأصوليين من مسألة تطور الألفاظ موقف مختلف عن اللغويين القدماء بالنسبة لهذا الاتجاه في التغير نحو التخصيص سواء كان التغير ناتجا عن قوانين السياق بمعناه الواسع أي في الإستعمال، أو كان ناتجا بفعل التطور والزمن»[2].

ويعتبر دليل التخصيص من أهم المباحث في دلالة العام حيث يتم تخصيص العام بقرائن وأدلة مخصصة، وهي نوعان لفظية وغير لفظية، وكل منها ينقسم إلى أقسام، نجملها في الشكل الآتي :

---

(1) الغزالي : المستصفى ص. 77-78.

(2) سليمان طاهر حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين ص : 31



وقد حاول الأصوليون من خلال هذه المحاور ضبط المعنى مع تحديده بدقة دون أن يتوقفوا عند ظاهر اللفظ، وعند الأحكام التي أسسها اللغويون بل تجاوزوها إلى إبراز مستويات أخرى كإشارتهم إلى العلاقة الزمنية بين الإستثناء والمستثنى حيث أكدوا على الإتصال(4).

(3) العرف إما قولي أو عملي، والعرف القولي نوع من التغيير الدلالي يسير بدلالة الكلمة من الإتساع إلى التضييق غالبا كإطلاق لفظ الدابة على ذوات الحمل خاصة وهي في الأصل لكل من يدب على الأرض، أما العرف العملي، فهو ماجرى عليه عمل الناس وتعارفوا عليه في سلوكهم وتصرفاتهم.

(4) الاتصال معناه أن يكون الإستثناء متصلا بالمستثنى منه حقيقة من غير فاصل بينهما =

2- الخاص :

وهو لفظ وضع للدلالة على واحد مفرد سواء أكان شخصا كمحمد أو نوعا كالإنسان، أو جنسا كالحيوان، وسواء وضع للذوات، كالأمثلة المقدمة أو وضع للمعاني كالعلم والجهل[5] ، ويندرج في الخاص : المطلق - المقيد - الأمر - النهي .

وحكم الخاص على وجه الإجمال أنه إذا ورد في نص شرعي دل دلالة قطعية على معناه الخاص الذي وضع له حقيقة، وثبت الحكم لمدلوله على سبيل القطع لا الظن، ونقف عند الأمر والنهي .

لقد اعتنى الأصوليون بالأمر والنهي عناية خاصة لا نجد لها نظيرا عند اللغويين أو غيرهم ممن اعتنى بدراسة (الأمر والنهي)، فغالبا ما اهتموا بالمستوى التداولي دون الإقتصار على المستوى الصرفي أو المعجمي أو التركيبي إلا بالقدر المؤثر على دلالة الصيغة، ومعناه أنهم حاولوا أولا ضبط دلالة الصيغة منفردة عن السياق (الدلالة المعجمية) أو ما يعبروا عنه «بأصل الدلالة» تليها المرحلة الثانية الخاصة بالسياقين اللفظي و الحالي، وقد اهتم الأصوليون في هذا المستوى بالسياق لأنه الوسيلة الأساسية لتحديد المعنى .

ففي مسألة الأمر مثلا أشار الأصوليون إلى أن صيغة الأمر «افعل» أو ما يقوم مقامها (كالمضارع المقرون بلام الأمر) «لينفق ذو سعة من سعته» فإنها قد تستعمل بمعان عديدة تبعا لسياق الكلام : كالوجوب والإرشاد والإباحة والتهديد والتعجيز والتسوية والتمني. . . وبذلك يلتقي الأصوليون بالبلاغيين في القول بخروج صيغة الأمر عن مقتضى الظاهر فتدل على معان غير معناها الأصلي تفهم من سياق الكلام وقرائن الحال .

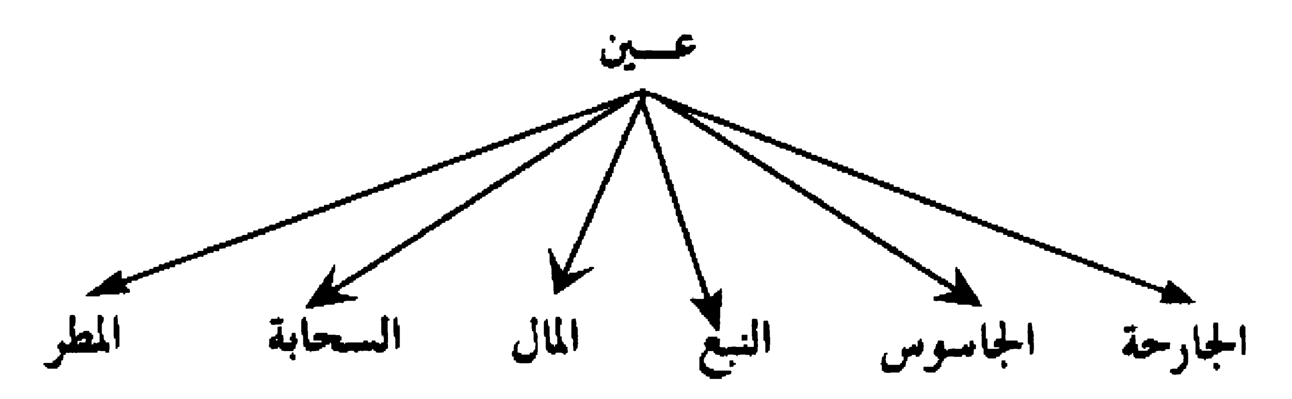
= فمن قال : جاء الطالب، ثم قال بعد ساعة : إلا محمد، لم يعد هذا كلاما (وهو مذهب الشافعية وأكثر الأصوليين).

(5) علي حسب الله : أصول التشريع الإسلامي : ص : 210.

ونظير الخلافات التي أثارها الأمر، أثارها النهي أيضا، وبذلك نستنتج أن للأمر والنهي معان عديدة تستفاذ من السياق، وتختلف عن معاني صيغتها، وفي ذلك إقرار بوجود معنيين، أحدهما حرفي (Littéral)، يتحدد من خلال دلالة الكلمة أو صيغتها التي تكونها، ومن القواعد الصوتية والصرفية والتركيبية التي تتألف بموجبها هذه العناصر، والآخر سياقي حيث يعني أن للفظ شيئا آخر غير الذي تحمله مكوناته اللغوية، وهو ما يعرف عند جريس (Grice)[6] . بالإستلزامات الحوارية، أو الأفعال الكلامية غير المباشرة.

3 – **المشترك اللفظي :**

يعرف الأصوليون المشترك (Homonymie) بأنه اللفظ الدال على معنيين مختلفين فأكثر دلالة على السواء عند أهل تلك اللغة[7]، ونأخذ كمثال على ذلك لفظ العين :



والمشترك قليل جدا في اللغة بالرغم مما قد يبدو من كثرته، وإنما مصدر هذه الكثرة هو التوسع المجازي في المعنى، وتوسيع المعاني انطلاقا من دلالة واحدة[8] .

---

(6) طه عبد الرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع، 1987 .

(7) السيوطي : المزهر : ج 1 ص : 369 .

(8) حسن ظاظا : كلام العرب، ص : 102 .

وقد استفاض الأصوليون في شرح أسباب وقوع المشترك إلا أنهم أغفلوا الإشارة إلى التغير الصوتي الذي يعتري كلمة معينة فتشتبه بالأخرى ذات دلالة مغايرة فينتج عن ذلك لفظ واحد له دلالتان مختلفتان أو أكثر.

من أهم إشارات الأصوليين في الموضوع ذهابهم إلى أن معنى المشترك لا يتحدد إذا كان مصحوبا بقرينة تبينة، ومن ثم فإن تحديد المعنى المراد يتوقف على هذه القرائن[9].

هكذا فلفظ المشترك يتميز باتساع دلالته، ولضبط الألفاظ المتسعة الدلالة ينبغي أن توضع في سياقها وتربط بالمقامات والممارسات التي تلائمها تلك الألفاظ إذا كانت محددة بدقة، فلفظ (عين) مثلا لا يمكن أن تستقر دلالته المقصودة إلا اعتمادا على السياق.

II – اللفظ باعتبار المعنى الذي استعمل فيه :

قسم الأصوليون اللفظ باعتبار المعنى الذي استعمل فيه إلى قسمين :

الحقيقة والمجاز، ولا يوصف اللفظ بذلك إلا بعد الاستعمال، ويعتبر ما قدمه الأصوليون في الموضوع لا يخلو من أهمية بدءا بآرائهم حول وقوع المجاز أو عدم وقوعه والمؤسس أصلا حول الإقرار بمسألة التطور اللغوي أو نفيها، ثم الإشارة إلى جهات المجاز وعلاماته وحكمه، ومستوياته الحقيقية، وقد أدرج بعض الباحثين هذا المبحث في إطار اهتمام الأصوليين بالوظيفة الجمالية للفظ على اعتبار أنها تتيح الإيصال والإبلاغ بشكل أرقى[10] والواقع أن الأصوليين لم يهتموا بما هو جمالي في دراستهم لمسألة الحقيقة والمجاز، بل إنهم تعاملوا مع هذا المبحث خاصة

---

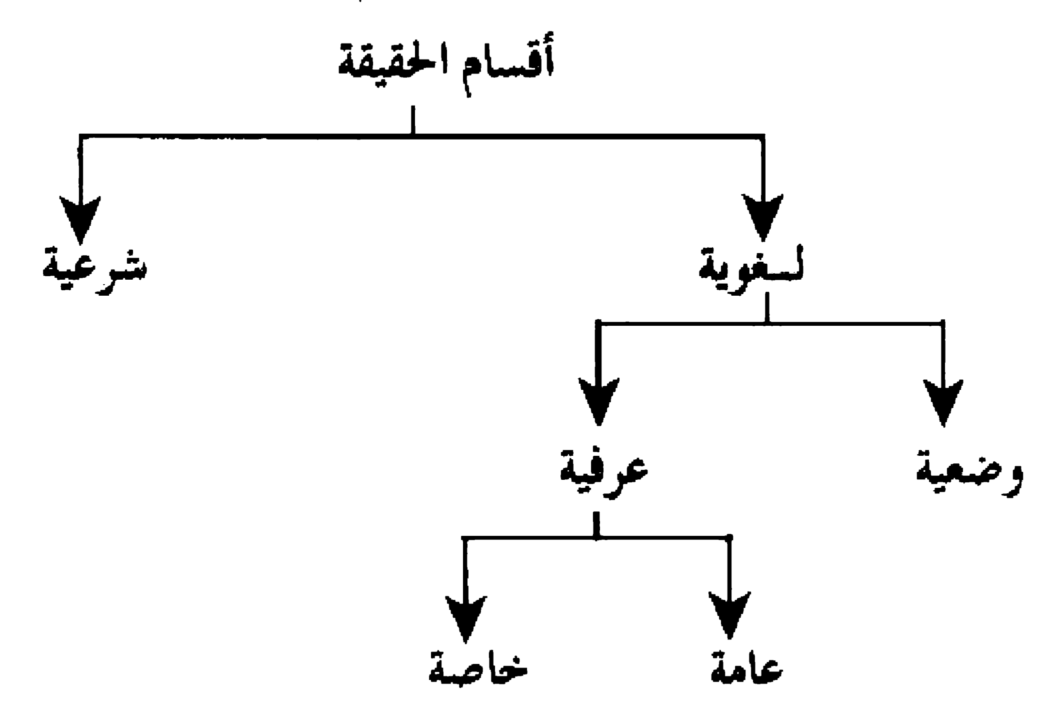
(9) سليمان طاهر حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين. ص : 87.

(10) ندوة المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم : مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس. ع 4. السنة 1988.

المجاز كممارسة عملية تساعد على فهم النص الديني وضبط كيفية اشتغاله بدقة وعمق كبيرين.

* **تعريف الحقيقة** : يقول الآمدي معرفا الحقيقة، هو «لفظ مشتق من الحق، ثم نقلت من الثابت أو المثبت ومعناه الثبوت»[11] إلى الإعتقاد المطابق للواقع مجازا، ثم نقلت من القول المطابق للواقع (الصدق) إلى المعنى المصطلح عليه عند الأصوليين وهو : (اللفظ المستعمل فيما وضع له في اصطلاح التخاطب). ويتقاطع هذا التعريف مع بعض الآراء اللسانية المعاصرة في علم الدلالة اللغوي، حيث الكلمات لاتمتلك معان مسبقة بل استعمالات.

* **أقسام الحقيقة** : قسم الأصوليون الحقيقة إلى قسمين : لغوية وشرعية، واللغوية تنقسم إلى وضعية وعرفية، والعرفية تنقسم إلى عرفية عامة، وإلى عرفية خاصة، فتكون الأقسام الأربعة :



ونستنتج من خلال هذه الأقسام انتباه الأصوليين إلى السياق متمثلا في تمييزهم بين الدلالة الأولى للكلمة «الحقيقة اللغوية الوضعية» كالأسد

(11) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام. ج 1، ص 36.

المستعمل في الحيوان، والدلالة العرفية تعني عند الأصوليين أن تغييرا دلاليا قد لحق الكلمة، والحقيقة العرفية إذا كانت حقيقة بالنسبة إلى تواضع أهل العرف عليها فلا تخرج عن كونها مجازا بالنسبة إلى استعمال اللفظ في غير ما وضع له أولا، أي أنها تعد مجازا بالنسبة لما يسمى بالحقيقة الوضعية.

وللعرف دور هام في تحديد المعنى فغالبا ما يخضع انتقال المعنى وتغيره لأسباب: تاريخية ولغوية واجتماعية ونفسية، وقد أعار (جرايس) في نظريته التداولية: (مبدأ التعاون) للعرف دورا مهما.

هكذا فالمتتبع لآراء الأصوليين في الحقيقة اللغوية يقف على مسألة في غاية الأهمية، وهي الاستعمال (L'usage)، فدلالة الألفاظ لا تتحدد إلا بالاستعمال وهو رحم مبحث التداوليات.

*** تعريف المجاز:**

يقول الآمدي معرفا المجاز «هو اللفظ المتواضع على استعماله في غير ما وضع له أولا في اللغة لما بينها من التعلق ولم يعتقد كونه وضعيا أبقى الحد وأبدل المتواضع عليه بالمستعمل وعلى هذا فلا يخفى حد التجوز عن الحقيقة العرفية الشرعية[12].

ويقول الغزالي: «المجاز ما استعمله العرب في غير موضعه»[13].

ويشترط لصحة المجاز وجود علاقة بين المعنى الحقيقي والمعنى المجازي لأن غياب العلاقة معناه جواز اطلاق كل لفظ على معنى مجاز وهو باطل، ومعنى العلاقة، وجود مناسبة واتصال بين المعنى الأصلي والمعنى الفرعي أعم من المشابهة أو غيرها كالسببية والمسببية والزيادة، والنقصان والمجاورة والكلية والجزئية والضدية...

---

(12) الآمدي: الإحكام في أصول الأحكام. ج/1، ص 39/38.
(13) الغزالي: المستصفى: ج 1 ص: 341.

وبذلك يتضح أن المجاز وسيلة يعاد بها توظيف اللفظ توظيفا جديدا ليدل على معنى لم يكن ليؤديه في الأول، فهو بمثابة نوع من الإشتقاق خاص بالمعاني، وقد حاول الأصوليون تحديد أسباب وقوعه فيما يلي :

- سبب صوتي.
- سبب نفسي.
- سبب جمالي.
- سبب مقامي.

وكلها مستويات تفيد التفات الأصوليين إلى مسألة السياق بمعناه الواسع ودوره في تحديد المعنى المقصود، يضاف إلى هذه الأسباب ما أشاروا إليه وهم بصدد دراستهم للحقيقة الشرعية، والحقيقة العرفية العامة والخاصة، فهي مجازات لغوية بالنسبة إلى الإستعمال اللغوي الأول، أو تغيرات دلالية تلحق ببعض الألفاظ لأسباب اجتماعية ودينية وثقافية ولغوية تتصل مباشرة بحياة الجماعة اللغوية وتجاربها.

وقد أشار إلى ذلك من الأصوليين «ابن برهان» حيث ذهب إلى القول: إن الأسماء الشرعية قد نقلها رسول الله (ص) من اللغة إلى الشرع، ولاتخرج بهذا النقل عن أحد قسمي كلام العرب وهو مجاز وكذلك كل ما استحدثه أهل العلوم والصناعات من الأسامي كأهل العروض والنحو والفقه، وتسميتهم النقض والمنع والكسر والقلب وغير ذلك، والرفع والنصب والخفض والمديد والطويل، وصاحب الشرع إذا أتى بهذه الغرائب التي اشتملت الشريعة عليها من علوم صار الأولون والآخرون في معرفتها مما لم يخطر ببال العرب، فلا بد من أسامي تدل على تلك المعاني[14] وقد نبه اللغويون القدماء إلى أن مجيء الإسلام قد أحدث تغييرا دلاليا في كثير من الألفاظ فلفظ الصلاة مثلا كان يدل في

(14) السيوطي. ج ١. ص 367.

وضعه الأول على الدعاء، ثم تجوز به في الإسلام ليدل على العبادة المخصوصة لأن الدعاء جزء من الصلاة.

وقد وضع الأصوليون مجموعة من العلامات والإمارات يمكن اعتمادها للتفريق بين الحقيقة والمجاز، وهي[15]:

- النقل عن أهل اللغة وهو ما أسماه الرازي بالتنصيص أو الإستدلال.
- الإشتقاق.
- استحالة الاطلاق.
- عدم مكان الانتفاء.
- إحياء المعنى المنسي.

واعتمادا على هذه العلامات التي يعرف بها المجاز، قسم الاصوليون المجاز إلى: لغوي وعرفي وشرعي.

- فالمجاز اللغوي كانتقال الإسم من الحقيقة اللغوية كما في إطلاق لفظ (الإنسان) على الناطق عموما عن طريق التجوز.

- المجاز العرفي كاستعمال لفظ (الدابة) لكل ما يدب على الأرض بعد استقراره، عرفا بذوات الأربع.

- والمجاز الشرعي كاستعمال لفظ (الصلاة) الذي استقر في الشرع بدلالة خاصة تشمل أقوالا وأفعالا تؤدى بصورة معينة، ثم يستعمل هذا اللفظ للدعاء.

III – اللفظ باعتبار الوضوح والخفاء:

إن مسألة وضوح اللفظ وخفائه وعلاقة ذلك بالمعنى تواجه بشكل لافت مستعملي اللغة ودارسي المعنى، مما دفع بالأصوليين إلى تبني

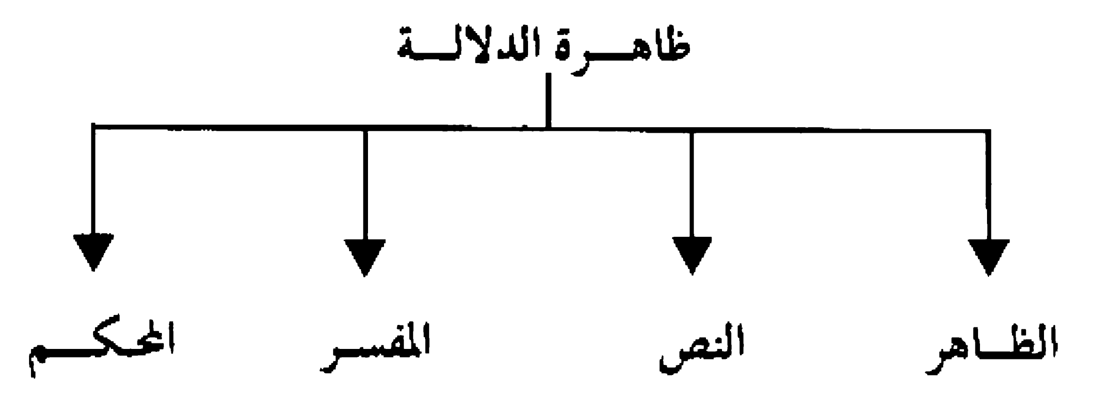
---

(15) السيوطي. ج 1. ص 367.

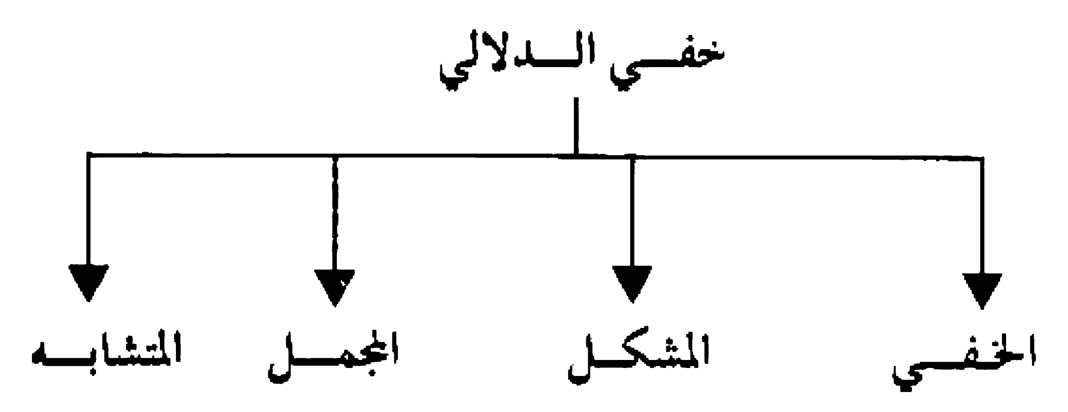
دراسة الوضوح والخفاء في الألفاظ من خلال استعمالها في النصوص الشرعية، وتعتبر دراستهم في هذا المجال متميزة لانكاد نجد لها نظيرا عند دارسي المعنى والمهتمين بمشكلة الدلالة(16) .

ويقصد الأصوليون بواضح الدلالة من الألفاظ ما دل المراد منه بنفس صيغته من غير توقف على أمر خارجي، أما الخفي الدلالة أو الغامض فهو ما لم يفهم المراد منه إلا بأمر خارجي، أي ببيان من نص آخر من القرآن أو السنة أو أفعال النبي (ص) أو بالقرائن.

وينقسم اللفظ باعتبار ظهور دلالته على المعنى إلى أربعة أقسام :



ودرجات الوضوح على نحو ترتيبها، فالظاهر أدناها يعلوه النص فالمفسر والمحكم أعلاها.



(16) سليمان ظاهر حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين. ص : 127.

وهي مرتبة أيضا تبعا لدرجة الغموض حيث يعتبر المتشابه أكثرها غموضا، وقد حاول الأصوليون من خلال ما قدموه حول دلالة الوضوح والخفاء أن يضعوا مجموعة من الشروط والمعايير يمكن أن ترقى إلى مستوى تأسيس منهج موضوعي وطريقة عملية في تأويل النص وتوجيهه ويكشف لنا مبحثهم في وضوح الدلالة وخفائها عن جوانب مهمة نذكر منها [17] :

* الدقة المتناهية في تصنيف مراتبة الوضوح والخفاء.
* مراعاة العرف اللغوي العام والشرعي الخاص في فهم النصوص.
* العناية بالسياق بمعناه الواسع.
* النظر إلى النصوص الشرعية من قرآن وسنة باعتبارها وحدة متكاملة يفسر بعضها بعضا.

VI) طرق دلالة اللفظ على مراد المتكلم :

إن اللفظ سواء كان منطوقا أو مكتوبا فإنه قد يدل على معان متعددة بطرق متعددة من طرق الدلالة، وليست دلالته قاصرة على ما يفهم من عباراته وحروفه، بل هو قد يدل أيضا على معان تفهم من إشاراته ومن دلالته، ومن اقتضائه، وكل ما يفهم من المعاني بأي طريق من هذه الطرق يكون من مدلولات النص ويكون النص دليلا وحجة غليه[18] .

وقد وقف الأصوليون على دلالة النصوص وحللولها، حيث استخلصوا منها قسمين أساسين :

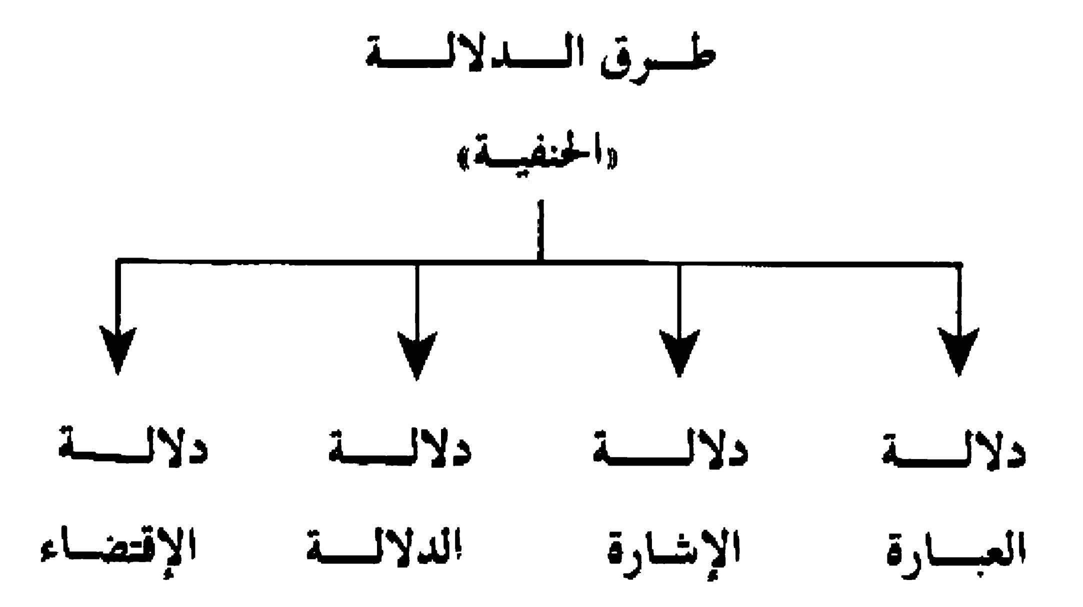
أ - أولها : ما نسميه بالمعنى الحرفي (Le scns Litteral)، ويسميه الأصوليين «بدلالة المنظوم أو المنطوق».

---

(17) عبد الوهاب خلاف : أصول الفقه. ص : 187.
(18) عبد الوهاب خلاف : أصول الفقه. ص : 143.

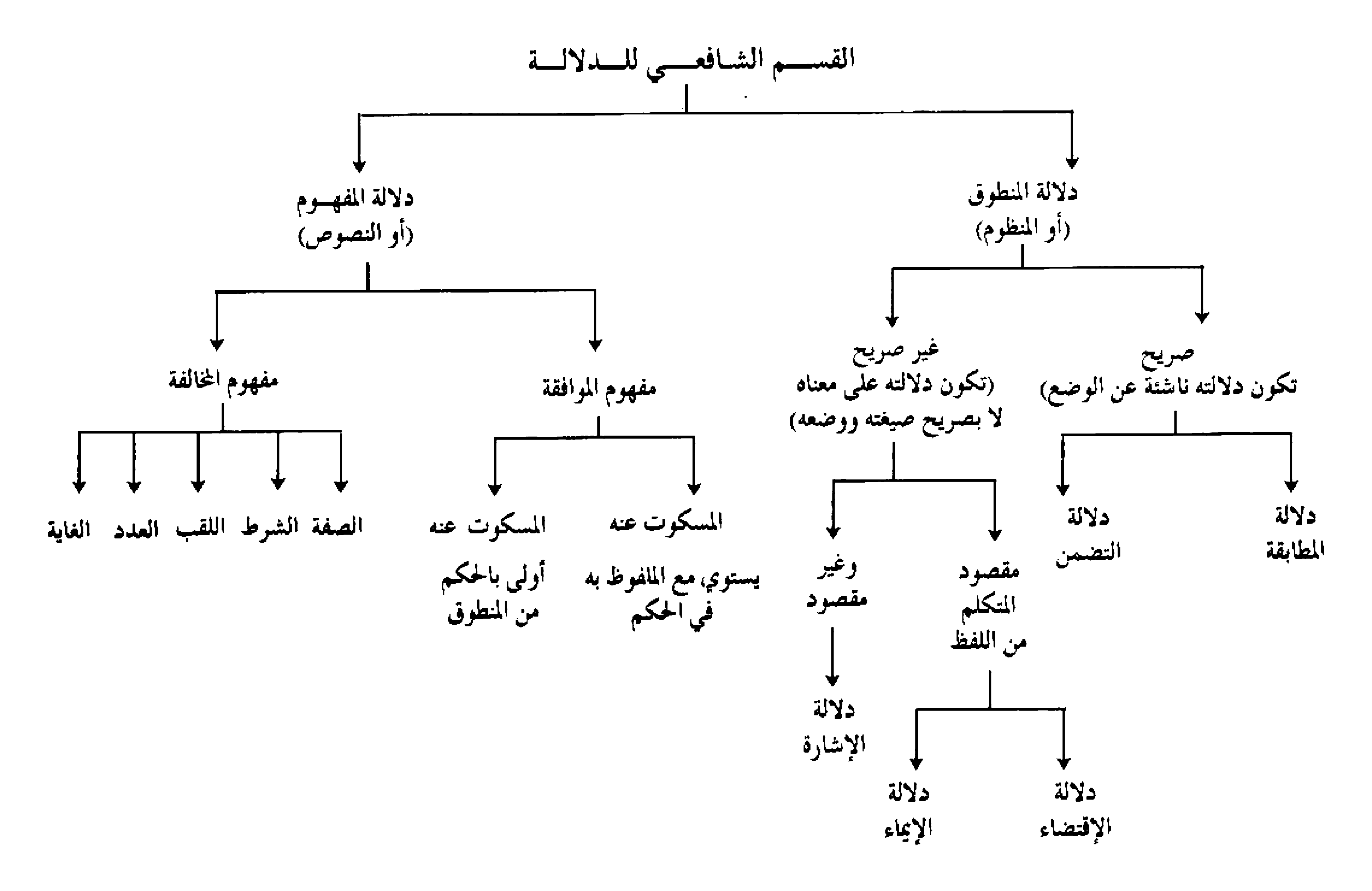
ب- ثانيها : ويشمل الدلالات التابعة التي يستلزمها النص، أو تسبق إلى الفهم من النطق به دون أن تدل عليها الألفاظ بحرفيتها، وكل الدلالات التي تفهم من النص عقلا دون أن تدل عليها عباراته الحرفية.

ويقسم الحنفية طرق الدلالة إلى أربعة أقسام :



أما الشافعية فيقسمون الدلالة إلى قسمين رئيسيين :

دلالة المنطوق، ودلالة المفهوم، وفيما يلي توضيح لهما في الشكل الآتي :



القسم الشافعي للدلالة
دلالة المنطوق
(أو المنظوم)
دلالة المفهوم
(أو النصوص)
صريح
تكون دلالته ناشئة عن الوضع)
غير صريح
(تكون دلالته على معناه
لا بصريح صيغته ووضعه)
مفهوم الموافقة
مفهوم المخالفة
دلالة
المطابقة
دلالة
التضمن
مقصود
المتكلم
من اللفظ
وغير
مقصود
دلالة
الإشارة
دلالة
الإقتضاء
دلالة
الإيماء
المسكوت عنه
يستوي، مع الملفوظ به
في الحكم
المسكوت عنه
أولى بالحكم
من المنطوق
الصفة
الشرط
اللقب
العدد
الغاية

وطرق الدلالة متفاوتة في دلالتها، فهي ليست على مراتب واحدة، فطريق الدلالة عند الحنفية أقوى من طريق الإشارة، لأن الأول يدل على معنى متبادر فهمه مقصود من السياق، والثاني يدل على معنى لازم غير مقصود بالسياق.

ونشير إلى دلالة الإقتضاء وهي دلالة اللفظ على مسكوت عنه يتوقف صدق الكلام عليه أو يستحيل فهم الكلام عقلا إلا به أو يمتنع وجود الملفوظ شرعا إلا به، وعرف (الآمدي) دلالة الإقتضاء بقوله «هي ما كان المدلول فيه مضمرا، إما لضرورة صدق المتكلم، وإما لصحة وقوع الملفوظ به»[19].

ويعتبر مفهوم الإقتضاء "Présupposition" من ضمن أهم المفاهيم الذي تقوم عليها التداولية حديثا، ويمكن القول إن طرح (جريس') له يقترب جدا من معناه المستعمل به في أصول الفقه[20].

ومن أهم مميزات الإقتضاء أنه يقدم تفسيرا صريحا لمقدرة المتكلم على أن يعي أكثر مما يقول بالفعل، أي أكثر مما يعبر عنه بالمعنى الحقيقي للألفاظ المستعملة ويفسر كثيرا من الأمور التي تبدو في غاية التفاوت والتباعد.

بعد هذا العرض الموجز لمبحث من مباحث علم أصول الفقه نخلص إلى القول إن الأصوليين قد اهتموا بالأدوات الإجرائية التي تضمن تماسك الخطاب وانسجامه ومنها السياق بمعناه الضيق أو الواسع، على أن هذا الإهتمام لم يكن انشغالهم الوحيد والأوحد، وإنما هو جزء من انشغال أعم ينصب في عمقه على استنباط المعنى من القرآن والحديث لإقامة قواعد الفهم المقابلة لقواعد النحو[21]، واستطاع الأصوليون أن يفصلوا القول في ذلك ويحددوه بشكل متناه في الدقة خاصة في كتاباتهم المتأخرة، ورغم أننا قدمنا آراء الأصوليين المختلفة حول

---

(19) الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام : ج 2. ص : 186.

(20) عادل فاخوري : "الاقتضاء في التداول اللساني، عالم الفكر" ع 3. س : 1989. ص 141.

(21) أحمد العلوي : الطبيعة والتماثل. مسائل عن الإسلام والمعرفة. ص : 126.

(السياق) معزولة عن أمثلة منتقاة من النصوص الدينية لتوضيح كيفية توظيفهم وتشغيلهم لهذا المصطلح، فإن ما قدمناه يبرز وعيهم بمسألة «السياق» واهتمامهم به كجزء من تصور عام يسعى إلى إبراز الاتساق النصي الديني خاصة في بعديه الدلالي والتداولي.

وأخيرا نشير إلى أن آراء الاصوليين حول «السياق» وغيره من القضايا التي ما زالت مبحثا بكرا يحتاج إلى دراسات لسانية حديثة لان ما قدمه بعض الدارسين العرب في الموضوع قد انطلق وقام على فرضيات لسانية باتت اليوم متجاوزة خاصة وأن تراثنا العربي غني وبإمكانه أن يمدنا بالمادة الخام التي يمكن أن نتخذها أساسا لبناء نظرية «سياقية عربية»، ونحن حين نقول هذا فإننا لا نهدف إلى إثبات الذات وتبرير السبق التاريخي أمام التحديات العلمية المعاصرة ونؤمن في نفس الوقت أنه من الصعب أخذ مصطلحات حديثة، من ميادين علمية حديثة ونبني لها تاريخا في معرفتنا، وثقافتنا لم تعرف ذلك المصطلح بنفس الحمولة التي عرفها الغرب، وإلا سنجد أنفسنا نقوم بنوع من التبنين على المستوى المصطلحي كما نفعله في مستويات معرفية أخرى، ونحن نعرف أن التبنين لا يؤدي إلى خلق معرفة جديدة وتاريخ جديد بقدر ما يؤدي إلى تنميط معرفتنا وتاريخنا ويحجم من إبداعنا المعرفي والتاريخي[22].

ونلخص في الأخير إلى ما يلي:

- تفرد الأصوليين بتصورات لغوية لا نجد لها نظيرا عند غيرهم.
- إقرارهم بحقائق لغوية عديدة تجعلهم يتقاطعون مع الدرس اللساني الحديث خاصة الدلالي والتداولي.
- محاولة وضع قواعد وضوابط ومصطلحات غاية في الدقة تثبت ارتكاز نظريتهم اللغوية على أساس عقلي ومنطقي.
- الاهتمام بكل مستويات السياق.

(22) أحمد بن حسن: مدخل إلى علم المصطلح، الفكر العربي المعاصر، ع: 66-67، س: 1989.

القسم الثالث
القسم التطبيقي

قراءة في نص : "الطحلب الآخر"

- للشاعر بنسالم الدمناتي -

تـوطئـــة :

بعد معالجتنا في القسم السابق من الدراسة لمجموعة من القضايا المتعلقة بالسياق سواء بمعناه الضيق أو الواسع، ننتقل إلى مجال التطبيق حيث سنعمل على إخراج هذا المصطلح من حمولته النظرية الخاصة إلى ما هو عملي، وقد اخترنا لذلك المجال الشعري، ونتساءل لماذا الشعر ؟

إنه الأفق الذي يكشف فيه الانسان عن نفسه ويفجر فيه رؤيته للوجود ورغبته العميقة في الاتصال بالأشياء والانفصال عنها في نفس الآن خارج العالم وكل الحدود التي تحول دون مغامرة الذات وإلحاحها على تخطي الزمان والمكان.

فمنذ البدء كان الشعر هو المخرج الاول للإنسان في بحثه عن التعالي والسمو عبر تخليص الذات من كل أنواع السيطرة، فالشعر مكان تجميع المتناقضات وزمان تداخلها، حيث الحيرة والضياع، الحياة والموت، الالم واللذة، الغربة والفناء تتراءى شفافة كشهادة أبدية تتخطى العالم العياني لتعيد تنظيمه من جديد وفق رؤيا تهدم الاشياء وتغيبها بعد أن ترتسم في بؤرة لا وعي الشاعر.

في البدء كان الشعر قداسة، وبسالة ومروءة، وكان الشاعر قوة لا تظاهيها أية قوة في العالم، فهو روح تمتد في الجميع، حضوره معادل للوجود أجمع، وغيابه انتصار للموت على الحياة. . . لذا لم يكن الشعر مجرد كلام يردد، بل إنه سيد الكلام لأنه يمتد في الوجود، فهو اللغة الأولى التي تمنح الوجود، والمسكن الذي ينتمي إليه الإنسان ويحتمي بظله على حد تعبير «هيدجر».

إن في الشعر شيئا يشبه الماء وهو ما يثير ويدفع إلى الارتواء منه، ذلك أن لحظة قراءته، هي لحظة عشق وهيام، لحظة حنين إلى الملجأ البدائي للإنسان، فالشعر يأسر بلغته، ويدفع إلى المغامرة، لذا فإن ما يربطنا به هو نفس ما يربطنا بالحب الكلي والاسمى، فهو لغة تنطلق من الجسد مبرزة ما تضمره الروح حيث تتوحد بالشعر كل الأشياء، لهذا كان الشعر ولايزال حنينا أبديا إلى الحرارة الفطرية للأشياء، فحين يتحدث الشاعر سواء عن نفسه أو عن الوجود . . . فإنه يغرق الحياة في غيبوبة ونشوة ينغمسان فينا بقوة السحر والحب، هكذا الشعر ينمو في الداخل ليتفجر في المخيلة خواطر تمتزج بالعالم والحياة لتحاورهما عبر التساؤل والتمرد والشك، إنه بداية التحول لاختراق الاشياء المألوفة وإعادة تنظيم العالم لا للسيطرة عليه ولكن لتقديسه وتمجيده.

الانسان الشاعر هو الانسان المتحد مع ذاته والذي يواجه الاشياء القائمة ببراءة وبنبرة تفيض عشقا تجعل من الشعر في النهاية المسكن الوحيد للإنسان، والخلاص الحقيقي للنفس من سيوف الانتظار والمطاردة، الشعر قلق، والجسد إذا لم يسكنه القلق خرب، هكذا الشعر، إنه اللغة الأولى التي تطهر وتشفي وتقلق وتنقد وتحصن الانسان، فما أعذب الشعر إذا أشعر الانسان بالعودة إلى أصوله إلى أحضان الأم، بدلا من أن يذوب ويقهر في نسيج اللاإسمنت والخطيئة.

وفي شهادة للشاعر : (بنسالم الدمناتي)(*) مثبتة في ديوانه «قفاز بلا يد» تحت عنوان (ديباجة لمسيرة مدان)(1) ، يقول :

«الرغبة التي لا يمكن أن أقاومها هي أن أكتب، أن أستمد إحساسي من كل ما يحيط بي، أن أمزج ذاتي بذات الآخرين لكن تعوزني - أحيانا- الجرأة في أن أتفانى في خلق عالم متميز، ومع هذا فلست رساما لأن الصور تتفاوت أمامي، فأرى اليمين يسارا، والواقف على رجليه مصلوبا، والهدوء نعشا كئيبا. . . . .

إن علاقة الشاعر بالكتابة هي علاقة الرغبة العميقة في اختراق كل شيء، وتحقيق أمل واحد هو الكتابة، كتابة تتمرد وتدمر المألوف حيث يصبح الشعر فعلا جسديا وقلقا وجوديا يعبر من الداخل إلى الخارج ليمتزج بالآخرين، يقول الشاعر بنسالم الدمناتي :

«إني مواطن، أحب التربة والإنصهار في الجماعة. . . لأنها جوهر وجود الإنسان- همومها، وضعفها، ومعاناتها. . . هكذا يصبح وجوده قاعدة للوجود أجمع، ورؤيته سفر دائم وعشق أبدي ينقل عبره معاناة الآخرين، ويتواصل معهم لأنه طرف منهم، بل إنهم شيء واحد ينصهر باسم الكلمة القائمة على الفعل والتواصل بينه وبين الآخرين، يقول الشاعر :

«الشعر تعبير عن وجودانية الشاعر نفسه وإبراز وجدانية الغير، ومعناه أن الشعر لا ينحصر في ذات المبدع فقط بل هو مشاركة بينه وبين المتلقي، فالقيمة الحقيقية للشاعر (أي شاعر) تكمن في تلك الخصائص التي يلتزم بها، كيفما كانت، سواء كانت نابعة من الذات (ذات الشاعر) أو ذات الآخر أو المحيط بصفة عامة، وبذلك فالشعر كشف للتجارب والمعاناة، وامتزاج بالبيئة وقضايا العصر، وبتعبير أصح مرآة تعكس ذات المبدع

(*) نعتبر هذه الشهادات بمثابة نصوص موازية.

(1) بنسالم الدمناتي : قفاز بلا يد، منشورات السفير، الرباط 1992، ص : 117.

وذات المتلقي والواقع، ففي الشعر تتقاطع المرايا وتتعاكس لتشغل كل حيز في الوجود، وبهذه الشفافية يضمن الشعر وجوده»[2].

ولعل الشاعر بهذا الطرح يعمق فهمه للشعر حيث يؤسسه على مشاركة القارئ في سجن الشعر ليأسر إلى جنب الشاعر ولا قدرة لهما معا إلا الإستجابة والإنجذاب، خاصة وأن الشعر حركة لا تتوقف وفاعلية لا متناهية تحقق استمراريتها ووجودها عبر المتخيل، يقول الشاعر «بنسالم الدمناتي».

« المنطق بالنسبة للشاعر تجليات سانحة تخضع لشكل من أشكال الحياة تتمازج فيها، وتراود الصدق في تمثيل القياس»[3].

قراءة النص

إن إقرارنا بمصطلح «السياق» معناه إيماننا القطعي بأن الشعر فعل تواصلي يستدعي حضور شروط متعددة تصاحب الفعل الشعري ذات وظيفة تداولية تمكن القارئ من محاصرة المعنى النصي ليعيد بناءه من جديد و هو يمارس فعل القراءة (l'acte de lecture) خاصة في اللحظة التي يبدأ فيها النص يحدث وقعا جماليا خاصا وأثرا يبنى مع القراءة التي تفتح بدورها الطريق أمام القارئ لاضاءة عتماته.

إننا نراهن على السياق بكل مستوياته وشروطه الدلالية والتداولية في فهمنا للشعر سواء كان السياق نصيا (داخليا) أو خارج نصي (خارجيا)، وإن كان البعض يذهب الى اعتبار أن من خصوصيات الخطاب الأدبي عامة العتمة والتشويش والإبهام والتعقيد. والواقع أن لغة النص الشعري لها علاقة مع مجموعة لغوية أوسع، ومنها اللغة العادية التي تخضع لقوانين لا يمكن هجر ثوابتها في كل ممارسة لغوية، وإن كان هذا لا ينفي

---

(2) بيان اليوم الثقافي، ع. 34. بتاريخ 1992/08/10.

(3) بنسالم الدمناتي : قفاز بلا يد. ص : 188.

كون اللغة الشعرية لها نظامها الذاتي المتميز و المختلف بحيث تبني دلالتها الخاصة التي لا يمكن ان تقارن بنظام التواصل اليومي، كما أنها تتضمن نوعا من التفاعل مع الواقع يخضع لمبدأ التأويل وهو تفاعل «يتم وفق تصور تخيلي لقارئ أو مستمع مفترض يحضر في النص باعتباره ذو أفعال إرجاعية متأثرة وناقدة ومقومة.

ومن هنا تنبع العناية التي يوليها المبدع لانتاجه قبل إخراجه إلى جمهوره الذي يتفاعل معه على أساس أن الأنا الثانية التي يجردها من ذاته فيتواصل معها أنا جماعية تمثل هذا الجمهور وتعكسه في الرسالة بشكل ضمني أو صريح[4].

و بناء عليه فإننا نستحضر في تعاملنا مع النص الشعري :

- المتكلم (الشاعر).

- المتلقي (القارئ).

ونعتبرهما معا رحم عملية التواصل فلا يمكن أن نتصور فعلا تواصليا في غياب الأطراف المساهمة في خلقه وتشكيله وبنائه خاصة وأننا قد بينا في القسم السابق من الدراسة اهتمام جمالية التلقي بالقارئ واعتباره مخرج العمل الادبي الى الوجود، بل إنه عنصر أساسي في إتمام عملية انتاج النص الادبي نفسها، والذي يظل في حاجة إلى أداة تحققه وهي القراءة عبر تداخلاتها المتعددة و هو ما ينتج عنه نوع من التفاعل بين النص والقارئ وهو تفاعل ضمني مستمر وممتد عبر الزمن، ولتحقيق انسجام النص (الخطاب الشعري) لابد من استحضار العناصر الأخرى المكملة لسياقه التواصلي زمانا ومكانا ومقاما، وبذلك يظهر أن السياق عنصر مركزي وأداة إجرائية أساسية ينبغي أن تأخذ بعين الإعتبار، فالخطاب

---

(4) إدريس بلمليح : المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام، منشورات كلية الآداب بالرباط، 1995، ص : 275.

القابل للفهم والتأويل وبناء المعنى هو الخطاب القابل بأن يوضع في سياقه، إذ كثيرا ما قد يكون المتلقي أمام خطاب بسيط من حيث لغته ولكنه يتضمن قرائن تجعله غامضا غير مفهوم إذا لم نحط بسياقه[5].

فالنص الأدبي لا يملك فقط بنياته الداخلية كما يذهب إلى ذلك الشكلانيون وأصحاب لسانيات الجملة، وإنما يملك ايضا بنى أخرى يجب استحضارها و الربط فيما بينها في إطار التحليل النصي، فليس المهم هو فهم النص وتحليله لذاته، وإنما فهم وتحليل مختلف وظائفه تبعا لسياقه.

والنص الشعري الذي سنحلله على ضوء مصطلح السياق يحمل عنوان «الطحلب الآخر» للشاعر بنسالم الدمناتي وقد نشر النص لأول مرة «بالملحق الثقافي» لجريدة العلم، العدد 826 بتاريخ : 11 يونيو 1991، وأعاد الشاعر نشره في ديوان «قفاز بلا يد»[6].

إن القراءة البصرية لهذا النص تجعل القارئ يحدد مجموعة من الإحالات المرجعية التي يمكن اعتبارها مكونات سياقية تفيد في التواصل مع النص، بحكم أنه مقيد بها مما قد يساعد القارئ في عملية الفهم والتأويل، وهي كما يلي :

- تعيين الجنس الادبي الذي ينتمي إليه النص من خلال لفظ شعر المثبت أعلاه كمؤشر لغوي -نصي يوجه به المتلقي وجهة محددة.

- إن النص حداثي و يظهر ذلك من خلال طابعه الكاليغرافي.

- إنه موقع بإسم الشاعر (بنسالم الدمناتي) وهو من شعراء المغرب المعاصرين.

- الاحالة على مكان الكتابة : (الخميسات).

---

(5) محمد الخطابي : لسانيات النص. مدخل إلى انسجام الخطاب، ص : 297.

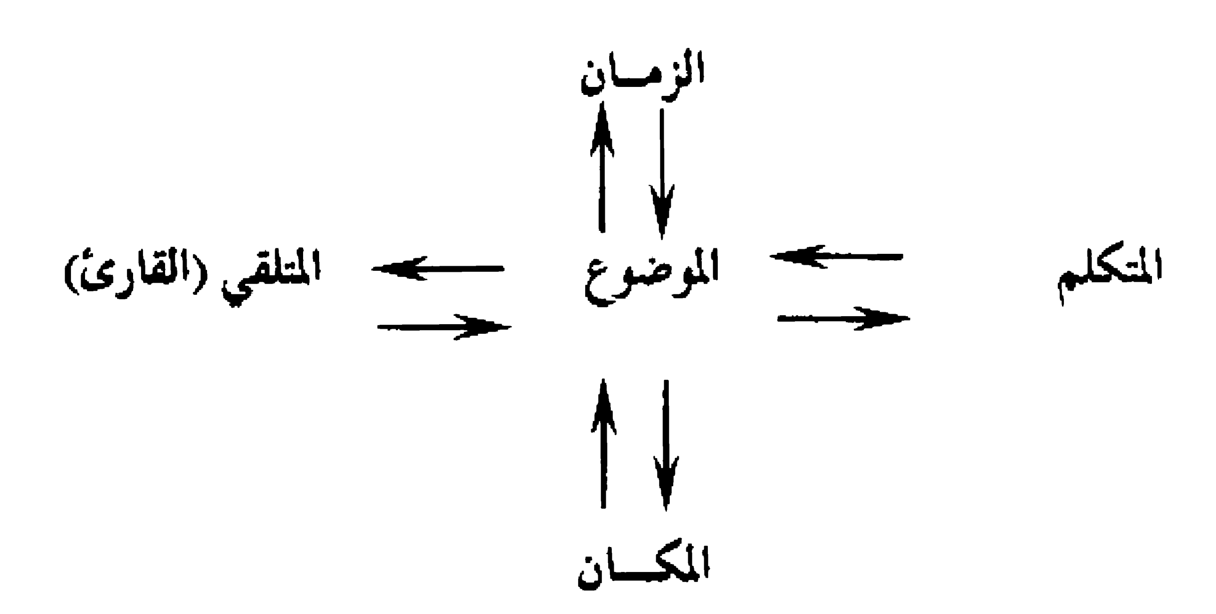
(6) بنسالم الدمناتي : "قفاز بلا يد" (1992).

- الاشارة الى زمن الكتابة : 5-6-1991 .

- وسيلة التواصل المعتمدة : ملحق ثقافي / ديوان شعري .

- طبيعة المتلقي وهو فئة خاصة من القراء نفترض أنها تملك معرفة وقدرة أدبية مما يمكنها من التواصل مع هذا النص بحيث تستخرج منه استفراضاته وتعمل باستمرار على إبراز طاقاته الجمالية أو ما يتضمنه وتملئ فضاءاته الفارغة، وبذلك فإنها تساهم في بناء المعنى وتأويله، واستتحضارنا للقارئ يأتي من استحضار المبدع له مخاطبا عبر سياق تخيلي تتم به عملية التواصل التفاعلي بين المبدع والقارئ وهذا التفاعل لن يتحقق إلا بما يحمله النص من طاقة جمالية .

إن هذه المؤشرات السياقية كفيلة بخلق نوع من التفاعل بين النص وقارئه، وهي بمثابة دخيرة يمكن أن تتضمن سبل فهمه وتأويله وقد وضع بعضها قصديا، ونمثل لتفاعلها بهذا الشكل :



وسنحاول في قراءتنا للنص أن نسلك مسلكين :

الأول : سنقف من خلاله على العتبات الأولى للنص باعتبارها مؤشرات أولى لدخول عالم النص، بل إنها تشكل في بعدها العميق

سياقا من سياقات النص، تمارس على القارئ سلطة قبل النص، وهي :

أ - التعيين الجنسي.

ب - عنوان النص.

حيث ذهب جيرار جينيت[7] إلى أن النص نادرا ما يقدم دون تدعيمه باسم المؤلف و العنوان. . وهي مؤشرات تحيط بالنص وتمدده سواء على مستوى التلقي أو خلق حوار نقدي أو غير ذلك. . .

بعدها سنحاول الامساك بكل الأطراف الأخرى المكونة للنص اعتمادا على مصطلح السياق في بعده التداولي، وذلك من خلال الأسئلة الآتية :

- من هو المتكلم في نص (الطحلب الآخر) ؟
- من هو المتلقي ؟
- ما هو زمان النص ؟
- ما هو المكان المؤطر للنص ؟
- ما هو موضوع النص ؟

ولعل معالجة كل هذه الأسئلة سيضعنا في عمق ما أسماه ((فان ديك)) بالنص كفعل كلامي (Acte de language).

- العتبات الأولى للنص :

- التعيين الجنسي:

يعتبر مشكل الأجناس الأدبية من أقدم مشاكل البوطيقا (Poétique) إلى اليوم، إذ يتوقف على تعيين الجنس الشيء الكثير.[8]

---

(7)Gérard Genette, Seuils, Coll Poétique, Ed Seuil, 1987, p 93.

(8)D. Ducrot. T. Todorov : Dictionnaire encyclopédique des sciences du langages. p : 93.

وكما يتصل تحديد الجنس الادبي بمجال البويطيقا فإنه يتصل بتاريخ الادب، ويرى (باختين) أن كل تفكير في البويطيقا يجب أن يبدأ من الجنس الادبي الذي هو مفتاح للتاريخ الادبي.

وتطرح دراسته عدة معضلات، بدءا بتحديد مصطلح جنس(GENRE) نفسه، وإبراز مكوناته ووظيفته : ويصرح (جان ماري شيفر) إنه لم يتم بعد الحسم منذ أرسطو إلى الآن في مسألة الأجناس الأدبية، وتحديدها يضعنا أيضا أمام مشاكل أكثر صعوبة، وتأي قيمة تصورات (Chaefer) من كونها تقوم على انتقاد الخلفيات الأنطلوجية التي رافقت بعض التنظيرات المتعلقة بالجنس الأدبي خاصة الإتجاهات المثالية والواقعية والتوليفية[9].

ويستحضر (ديكرو) و(تودورف) مفهوم «المهيمنة» (La Dominante) لكي يحددا مسألة الأجناس الادبية ويذهبان إلى القول : ليعتبر هذا الموقف تراجيديا، مثلا يجب أن تكون العناصر الموصوفة مهيمنة.

وبما أن الاجناس توجد كمؤسسة فإنها تشتغل كآفاق انتظار بالنسبة للقراء، وكنماذج للكتابة بالنسبة للكتاب، فمن جهة فإن الكتاب يكتبون تبعا لنظام الاجناس الموجودة ومن جهة أخرى فإن القراء يقرأون تبعا لنظام الأجناس الذي يعرفونه عن طريق النقد أو المدرسة أو نظام توزيع الكتاب، ولكل مرحلة نظام للأجناس خاص بها، وله علاقة مع الايديولوجية المهيمنة.

وهناك دراسات نقدية تسعى إلى تكسير هذا الفهم للجنس الادبي،من خلال تكسيرها للحدود بين الأجناس وتجاوزها لمسألة التجنيس، وبالتالي اعتماد كل أشكال التعبير دون التمييز بينها.

---

(9) J.M. Çheaffer : Theorie des genres : coll : points. Ed : seuil : 1986.

ولعل تحديد الجنس الأدبي يساهم بشكل فعال في تحقيق عملية التواصل ويحيل على ممارسة تحدد طبيعة العلاقة بين المبدع والمتلقي وبذلك فإنه يساهم في بناء عملية القراءة لأنه يشتغل كخطاطة للتلقي وكقدرة قرائية، وبالنسبة للنص الذي ندرسه فالملاحظ أن لفظ «شعر» المثبت في غلاف الديوان[10] هو مؤشر لغوي وتداولي ينتج عنه تعاقد صريح (EXPICITE) بين المبدع والمتلقي أساسه تواصلي، وبذلك تتقلص المسافة الجمالية بين النص ومتلقيه الذي سيقرأ هذا النص وفق مقاييس الشعر، إذ سينتقل به لفظ «شعر» إلى مستوى تفاعلي معين.

2 – العنوان :

إن العنوان بنية دالة من بنيات النص، و نسق من أنساقه اللغوية، و ما هو في الواقع إلا بنية أولى لدخول عالم النص واقتحامه، وبالإفادة من وظائف اللغة (لجاكبسون) يتبين أن للعنوان وظائف متعددة : كالوظيفة المرجعية (المرجع) والوظيفة الإفهامية (المرسل إليه)، والوظيفة الشعرية (الرسالة)، وقد تتسع لدى (هنري ميتران) لتشمل الوظيفة التعيينية والوظيفة التحريضية والوظيفة الاديولوجية، وقد اعتبره (جاك دريدا) كثريا بحكم موقعه معلقا على سقف النص.

واختيار (بنسالم الدمناتي) لنصه الشعري عنوان « الطحلب الآخر» قد يطرح العديد من الأسئلة من قبيل : لماذا هذا العنوان بالذات ؟ هل ثم اختياره عن قصد ونية سابقة ؟ أم أنه جاء اعتباطا ؟ أم أن هناك أشياء ضمنية لايدركها إلا المبدع ولا تتأتى لغيره ؟.

إن القراءة المعجمية أو (العمودية) لبنية العنوان تستكين أساسا إلى مكوناته اللغوية ، وهي مكونات تضعنا في صلب القاموس مما يجعل فعل القراءة (L'acte de lecteur) فعلا منحصرا في بنية مغلقة تحدد العلاقة بين الدال والمدلول في حرفية المعنى حيث الدال لا يحيل إلا على مدلول

---

(10) بنسالم الدمناتي : "قفاز بلا يد" منشورات السفير. 1992.

واحد ووحيد يمكن تحديده بالرجوع إلى القاموس لأنه يقع في سياق الصفر (contexte zero)، ويحدد القاموس معنى «الطحلب الآخر» كما يلي :

- الطحلب : خضرة تعلو الماء الآسن ، وهي نباتات بسيطة لا زهرية غير مميزة إلى سوق أو أوراق أو جذور ،منها الأخضر والأصفر والبني والأحمر والأزرق ، يعيش في الماء العذب والملح وفي الأرض الرطبة (ج) طحالب[11] .

- الآخر : أحد الشيئين، ويكونان من جنس واحد[12] .

إن اللغة الشعرية تقاوم كل القيود وتعمل على انعتاق الدال من أسره ليعانق المدلول ذلك أن الشعر بلغته يسعى إلى الإتصال بالأشياء والإنفصال عنها في آن واحد باعثا فيها التوثر والقلق ،وهذه المقاومة التي تتم بين الشعر وكل شيء تسمح بإنتاج المعنى، وليس المعنى ذاته كما يقول (لاكان) Lacane ليعانق الدال المدلول وينزلقا معا ممارسين لعبة الخلق والولادة والتجدد، خلق دلالات إيحائية جديدة تنتقل بنا من المستوى اللغوي (القاموسي) الاعتباطي «سياق الصفر» إلى مستوى رمزي تتسع به اللغة و الإبداع وتتعدد سلسلة الدوال والمدلولات إلى ما لا نهاية له، وبناء عليه يصبح عنوان نص « الطحلب الآخر» رمزا معادلا لكل متملق ومنتهز ومستغل «إبليس» - كما أشار إلى ذلك بنسالم الدمناتي في النص موضوع الدراسة - لا يأبى إلا العيش وسط الماء القذر ، هذا الصنف من الناس لا يهمهم إلا ذواتهم ومصالحهم وفي سبيلها تتحطم كل المبادئ والقيم، ولا يبقى إلا مبدئ واحد ، وهو التنكر المبني على الإستغلال وقتل كل ما هو جميل وطيب في الإنسان.

---

(11) المعجم الوسيط : تأليف جماعة من الباحثين ج :2 ص : 552.

(12) المرجع نفسه : ج 1، ص : 81.

وقد صرح لنا الشاعر «بنسالم الدمناتي» بشهادة[13] مفادها أنه كان يعتزم أن يحمل ديوانه «قفاز بلا يد» عنوان «الطحلب الآخر» لأن هذا العنوان الأخير ينسجم بعمق مع تجربة المرارة والغربة والخوف التي عاشها الشاعر، لكن الذي حال دون ذلك هو أن معظم النصوص التي نشرها في ديوانه (قفاز بلا يد) يعود معظمها إلى تجربة الستينات وعنوان «قفاز بلا يد» يعبر عنها بصدق، ويعكس تجربته الشعرية في تلك المرحلة.

بهذا الفهم المؤسس على التأويل للعنوان يتجاوز الشاعر المتداول والمستعمل من ألفاظ اللغة العادية ليجعل العلاقة بين الدال والمدلول مشدودة إلى شبكة علائقية متناصة، ولتحقيق ذلك نستحضر السياقين النصي والنفسي اللذين أحاطا بإنتاج نص (الطحلب الآخر) : إنه سياق التوتر والقلق والتلاعب والإنتظار.

إن الشاعر بهذا العنوان يمارس الخرق على ما يسمى بالدلالة المباشرة للألفاظ حيث يتجاوزها إلى أفق ما فوق الدلالة، وهو أفق أوسع وأعمق، يتحرر فيه الدال من كل قيود الدلالة التقريرية والاستعمالية، ويفتح أمامه آفاق التناسل والتوالد والاتساع، يقول عبد الفتاح كليطيو : «إن حرفية النص ليست إلا وهما يرمي إلى إخفاء الحقيقة عن كل من ليس أهلا لمعرفتها، وإن كائنات موهوبة تدرك هذه الحقيقة، ولها ما يكفي من السلطة و القوة لكي تكشفها لمن يريد تعلمها»[14] .

وهنا تكمن أدبية النص الشعري، أي من خلال لذة قراءته، أو ما يسميه (بارت) بلذة النص (le Plaisir du texte)، وهذه اللذة لا تتحقق بالقراءة الفيلولوجية التي تسعى اساسا إلى ضبط المعنى الحرفي للنص بل هي قراءة مؤسسة على قواعد التضمين والتباسات القول الأدبي.

---

(13) هذه الشهادة صرح لنا بها الشاعر "بنسالم الدمناتي" في لقاء معه.

(14) عبد الفتاح كيليطو : الكتابة والتناسخ. مفهوم المؤلف في الثقافة العربية. ط. 1 . 1985. ص : 13.

- **مفاتن النص :**

إذا كان النص الشعري القديم غالبا ما يحيل على منتجه ومحيط إنتاجه، ومقام تلقيه أيضا، اعتمادا على مجموعة من الاحالات التي يوفرها النص، وهي غالبا ما تكون خارج نصية، يقدمها راوية الشعر أو شارحه مثلا :

- قال بشار بن برد يرد على بعض الأعراب عندما حط من شأن الموالي.

- قال أبو العباس الجراوي وهو في مقام عبد المومن بن علي اعترافا بجميله في الدفاع عن حوزة الإسلام.

- قال حافظ ابراهيم بمناسبة الوحدة التي قامت بين مصر وسوريا...

ومن خلال هذه الاحالات يمكن رصد السياق الخارجي للنص حيث يتم تحديد :

* المتكلم / الشاعر.
* المتلقي (الممدوح) مثلا.
* المناسبة (الفخر، الهجاء، المدح)...

وكلها إحالات مرجعية تقلص، المسافة الجمالية بين النص والقارئ وتساهم في تأويل النص.

إلا أن النص الشعري الحديث نادرا ما يوفر هذه الامكانية، وحتى إذا وفرها أحيانا فإنه قد يخيب أفق انتظار القارئ، مما يجعله مفتوحا على لعبة القراءة التي تتيح للقارئ استفراضات تجعله يتجاوز القراءة الأحادية ليحقق ما يسمى بالقراءة الجمع (Lecteur plurielle) اللامتناهية، فالأثر الأدبي كما يقول (بارت) لا يخلد لكونه فرض معنى واحدا على أناس مختلفين، وإنما لكونه يوحي بمعان مختلفة لإنسان واحد، يتكلم دائما اللغة الرمزية نفسها خلال أزمنة متعددة[15] ونتساءل :

---

(15) رولان بارت : النقد والحقيقة، ترجمة إبراهيم الخطيب ومراجعة محمد برادة، مجلة الكرمل. ع : 11. س : 1984.

- من هو المتكلم في نص «الطحلب الآخر» للشاعر بنسالم الدمناتي ؟

- ومن هو متلقي النص؟

- وما هو زمان النص؟

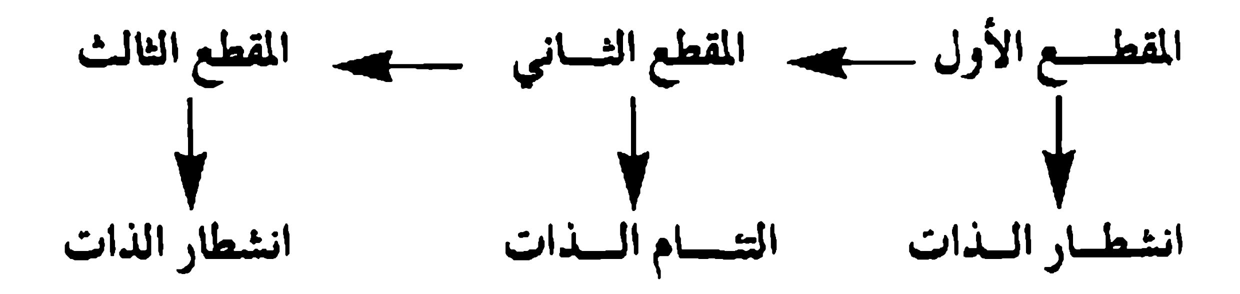
- وما هو المكان الذي يؤطره ؟

- وما هو موضوعه ؟

إن الاقتراب من هذه الأسئلة يحتم علينا تجاوز السياق الصغير (Micro Contexte) للنص إلى ما أسماه (فان ديك) بالسياق الاجتماعي والنفسي والثقافي، ورغم ذلك فالجواب عنها ليس سهلا لأن الشاعر غالبا ما قد يكون متحررا من قيود السياق بحكم أنه قادر على الركون إلى ما هو تخييلي وذلك لخلق مقاماته الخاصة .

* من هو المتكلم في نص الطحلب الآخر :

بما أن النص للشاعر (بنسالم الدمناتي) فإننا نفترض أنه المتكلم في النص خاصة وأن اسمه مثبت على غلاف الديوان وبذلك فإنه عقد مع هذا النص وغيره من نصوص الديوان ميثاقا قويا، إلا أن «الأنا النصي» الحاضر بعمق في كل فضاءات نص «الطحلب الآخز» يوحي بأن المتكلم إنسان : غريب - ضال - متشرد - تائه - متعب - منبوذ - ميت، ويمكن القول بأن ذات الشاعر تحضر في كل مقاطع النص وقد اتخذت شكلا خاصا يمكن التمثيل له كما يلي :



يقول الشاعر في المقطع الأول :

ما أنا وجه غريب عنك – مكناس–

وما أنت غريبة

أنا فيك الضال رغم الثوب الذي يستر عريي

– سادرا –

لم يتسخ وإن بلله القطر

ولفته الحبيبة

غير أني تائه

أبحث عن قاعدة –أضحك فيها– مثل باقي

المتعبين.

وفي المقطع الثالث والأخير يقول «إنه لاشيء» :

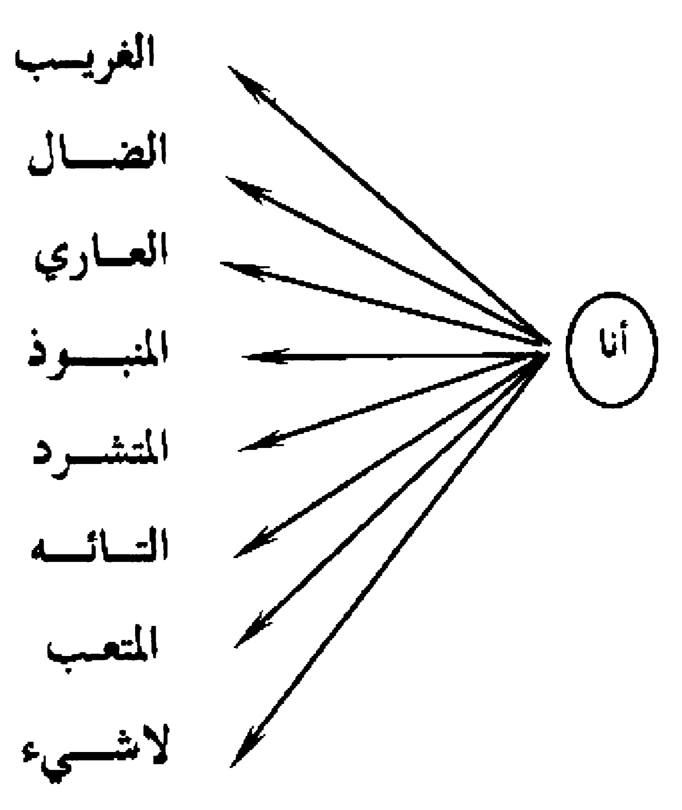
إنني لاشيء

لو كنت أساوي طحلب الماء

لكانت بطاقتي عليها رقع الأوبئة

وبذلك يظهر أن «الأنا النصي» متمرد ورافض لكل أنواع الخضوع فهو مسكون بهموم الذات ورغبتها في تحقيق وجودها وكينونتها وهي تواجه «الآخر» الذي يريد أن يجعلها تنخرط في صف التحجر والسكون والرتابة لذا جاءت «الأنا» محملة بشعور قوي ينبع من الأعماق ليفجر كل ما

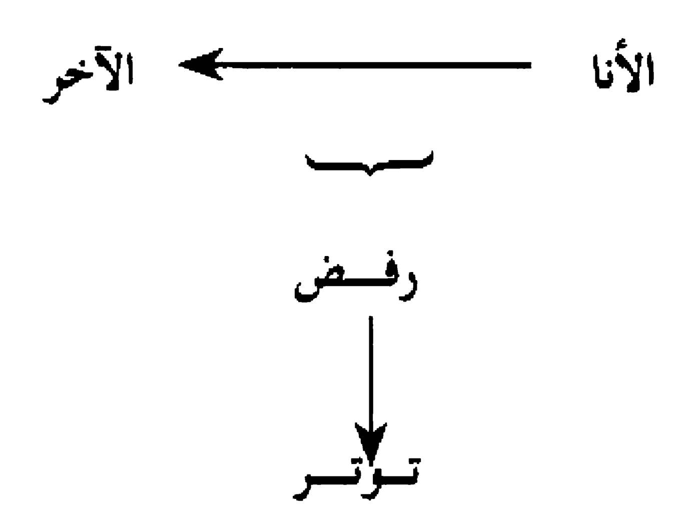
يتنافى مع عالمه النقي والطاهر، مستكينا إلى الجرأة والمطالبة بإلحاح بأن يتحرر من كل أشكال السلطة، ونمثل لظهور (الأنا) في النص كما يلي:



وحين نتأمل هذا التسلسل من الألفاظ المرتبطة بهدم الذات لإعادة بنائها من جديد نستنتج أيضا أنها «أنا» تعيش لحظة انشطار عميق نتيجة معاناتها الداخلية، مما جعلها تُفجِّرقلقها المبطن، لأنها أضحت تشعر بالانفصال عن كل شيء حتى عن نفسها «إنني لاشيء»، وهذا الانفصال ولَّد الرغبة في الاختلاف وقد نتج عنه ظهور «الأنا» عبر ذوات عديدة تفترق لتجتمع على الرفض وعشق الغربة والموت، ولعل الشاعر قد خُدِعَ في الذين أزاحوه عن المكان / البيت/ الألفة/ الطفولة/ الذاكرة/ الأحلام/ السعادة، وجعلوه يعيش لحظة العزلة عن العالم كله، ومن الطبيعي أن يثير فيه هذا الفعل شعورا بالامتعاض، فبدون البيت يصبح الإنسان كائنا مفتتا[16]. وهذا التفاوت الصارخ بين الأنا وغيرها من

(16) غاستون باشلار : جماليات المكان. ترجمة غالب هلسا، المؤسسة الجامعية للدراسات والنشر والتوزيع. ط 2 س : 1984 ، ص: 38 .

الأشياء يكشف لنا بجلاء عن الرؤية المهيمنة في النص دلاليا وهي رؤية نقدية حيال كل ما يجري في المكان بعد أن سلبت (الأنا) كل مقوماتها، وبهذا نفسر قلق (الأنا) والتي أصبحت تعيش تفاوتا صارخا بينها وبين الواقع خاصة، ومشكلتها هي عدم إحساس «الآخر» بهذا التفاوت، وقد نتج عن ذلك دلاليا خلق لموضوعات عديدة في النص، ونمثل لهذا التوتر الذي لمسناه في النص بين(الأنا) و (الآخر) خاصة بهذا الشكل:



إن المتكلم إذن في النص ذات متمردة تعيش لحظة توتر عنيف لذا فإنها ترفض كل أشكال الخضوع والسيطرة والاستسلام.

- ما هو موضوع النص؟

إن أول ما نلاحظه هو أن النص مقسم إلى ثلاثة مقاطع تتفاوت في توزيعها على فضاء الورق من حيث الكم دون أن تحمل هذه المقاطع عنوانا أو رقما أو إشارة ما، وما قد يثير القارئ هو تفاوت المقاطع من حيث الطول، فالمقطع الأول أطول بالمقارنة مع المقطعين الثاني والثالث، والمقاطع كلها تتظافر لتصب في رؤية واحدة وهي إبراز الذات (الأنا) وقد اتخذت صورا متعددة الأبعاد نتيجة شعورها بالغربة والتي تمثل البداية الأولى للذات في تحولها، حيث سينبني عليها اللاحق من المواضيع، أي أنها ستهيء لما سيأتي وتقيد تأويلنا له، ورغم ذلك فإن حضور (الأنا

النصي) بعمق جعل الإحالة على موضوع واحد أمر مستعصيا بحكم أنه كان يبنَى في كل لحظة بل في كل كلمة شعرية شخصية مغايرة ومختلفة ومغرقة في الإبهام مؤسسا بذلك هوية منفصلة لاتحيل إلا على ذاتها.

ويمكن أن نُلامس بعض الموضوعات التي يحملها النص اعتمادا على خلاصات لكي لاَ يكون عملنا إسقاطيا:

أ- الغربــة:

وقد نتج عنها الشعور بالتشرد والضياع والتعب والحزن نتيجة الابتعاد القصري عن المكان، يقول الشاعر:

والنادر من يأخذ من عينيه مشروبا

ولايفصل داء الموت عن ذات التراب.

إن الابتعاد عن المكان بالقوة معناه اقتلاع الانسان من جذوره وتربته وانتمائه، والحكم عليه بالغربة والتشرد والضياع (. . .) بل بالعدم خاصة إذا كان هذا المكان معادلا للذاكرة، هكذا تولدت الغربة نتيجة حرمان (الأنا) من حقها في الوجود والاحتماء بالمكان الذي يحدد هويته ويجعل من حاملها إنسانا له هوية وتاريخ.

إن النص يرتبط بالمكان ويعكس الابتعاد القصري عنه، لذلك ابتدأ الشاعر بالغربة ثم تناسلت لتولد التشرد والضياع. . . لأن الغربة معناها الانتماء إلى اللامكان، وهي تفرض على الإنسان الشعور بأن مصيره مسكون بالخوف.

ب - الحب والماء:

امام التشتت والتعب والحرمان لا يجد الشاعر إلا الحب والماء ليروي بهما ظمأه خارج دائرة التشتت والضياع.

لماذا الحب؟

لأنه أنبل ما يملك الانسان وأقوى ما يحتمي به، فبالحب نحيا، وبه نتحد مع الأشياء، فالحب ليس مجرد عاطفة، ولكنه قوة قهر التشيؤ وتأسيس التكامل وإقامة العدل كما يقول هيراقليطس[17]، وقد بحث الشاعر عن الحب وهو في أقصى عتمات الغربة، يقول:

أنا فيك الضال رغم الثوب الذي يستر عريي

سادرا -

لم يتسخ وإن بلله القطر

ولفته الحبيبة.

هكذا يستحضر الشاعر الحب ليبني به بيتا، وليطلع به نورا يغرق به من لاهمَّ لهم إلا جَلْدُ الآخرين. يقول الشاعر:

يا أرض إليك الآن - مواويلي -

إليك الحب.

وحين يلجأ الشاعر إلى الحب والأرض ليلتحم بهما معا وهو في نشوة مشدودة إلى العشق الأبدي فإنه يفضل أن ينصت ولايتكلم مخافة أن يمزق الكلام حرمة المقام الذي يعيش فيه والذي تحمل فيه الكلمة الشعرية فيضا من المعاني.

أما لماذا الماء؟

فلأنه سر الوجود، والمعادل الموضوعي للحياة، إذ لا حياة بدون ماء، والماء إضافة إلى أنه وسيلة للتطهير ورمز للصفاء[18]، فإن الشاعر حين يستحضره فإنه يجعل منه ماء لا تحتضنه الانهار ولا البحار، لأنه ماء لاقعر

---

(17) هيراقليطس : جدل الحب والحرب. ترجمة وتقديم وتعليق مجاهد عبد المنعم مجاهد، ط : 2، 1983. ص : 82.

(18) Jean Chevalier (...) : Dictionnaire des Symboles (...), ed. robert laffont. France 1969, p : 304.

له، فيه يستقر سر الوجود متى كان نقيا، وعبره يحاور الشاعر الأشياء وتحاوره، ليعلن تجليه فيها وانجذابه بها، وهي لحظة وجودية تمتزج فيها الكتابة بالموت وهي في قمة توترها، يقول :

أبحث عن مقهى -أضحك فيها - مثل باقي المتعبين

أختلي تحت غطاء السكر -في مقهى

نديمي

ملهمي - في مرفأ الحانة كأس

قد تجلت

و أنا اسكب فيها النار

والثلج الصناعي

سلاما لمدى المزج

وفعل الذائب الماسي

و زيغ المقلتين

بالماء يعبر الشاعر من مقام إلى مقام، إلا أنه لا يجد إلا القتم شهادة مقبلة يبني بها عالما متخيلا خاصة في لحظة من اللحظات ويمكن أن نصف هذا العالم وننعته بأنه مثالي، يقول الشاعر :

ما تخطت جرعة الموجب -باب الحرص-

حتى انبسط الداعي لمحو الفقر

في لحظة إشراقه.

ثم يحضر الماء في صورة أخرى، أي مدادا أسودا يشبه الحالة النفسية المضطربة التي تعيشها (الأنا) يقول :

ورقي يلبسه الحرف و عشقي.

يصعب الرفض -امتنانا-

لسواد الحبر للقوس

هكذا لايجد الشاعر إلا الحزن مقبلا، فيعود إليه في كل لحظة، يقول :

وداعا

إنني لا شيء

لو كنت أوساوي طحلب الماء

لكانت بطاقاتي عليها رقع الأوبئة.

ج - الموت :

يحضر الموت بثقله وهمومه خاصة عندما يصبح خلاصا للذات مما تعانيه، ومعادلا يحقق التوازن ويرجع إلى الطاعة، وعندما يقف الشاعر على عتبة الموت، فإنه يتلذذ به، ويطرحه كمنقذ لما يعيشه، وكشاهد يستفهم به عن أشياء عديدة دون حاجة إلى جواب عنها، يقول الشاعر :

والناذر من يأخذ من عينيه مشروبا

و لا يفصل داء الموت عن ذات التراب

وفي السياق النصي للموت يركن الشاعر إلى القبو كتجلي من تجليات الموت حيث السواد يمتزج بالتراب، فتتهدم معالم المكان «البساتين»، «البيت» ويرحل الشاعر عبر سراديب كلها عتمات تشعره من جديد بالغربة فيسقط ذاته على المكان، يقول باشلار : «أما بالنسبة للقبو فإن الحالم يحفر ويحفر حتى يجعل من أعماقه نابضة بالحيوية، الحقائق لا تكفي لأن الحلم يعمل. وعندما يصل الحلم إلى الأرض المحفورة، فهو

لن يتوقف عند حد»[19]، ويقول الشاعر وهو في قمة إعلان عصيانه وغضبه:

وداعا

إنني لا شيء

إن قضية الموت حالة من الحالات التي يمكن القول إنها تحضر في كل فضاءات النص وهي بذلك تكتسي العديد من الدلالات، يقول:

والناذر من يأخذ من عينيه مشروبا

و لا يفصل داء الموت عن ذات التراب.

ويتضح أن الموت كلحظة مركبة قد امتزج بالتراب وأصبح سيان.. هكذا أضحى الشاعر، فكان قوله رسولا يحمل البأس الشديد، لا ليهدي الآخرين وإنما ليهدي ذاته وحدها لكونها قد اكتوت بنار الخطيئة، خطيئة الآخرين فاصبح يرى ما لا يراه الآخرون، و يقول ما لا يقولون، يقول:

لو كنت أساوي طحلب الماء

لكانت بطاقاتي عليها رقع الأوبئة

- تأشيرة مكدود -

يرى الجنة في النار...

وفي النار يرى بابا قصيا

ليس بابا للإياب...

3 - المتلقي / القارئ:

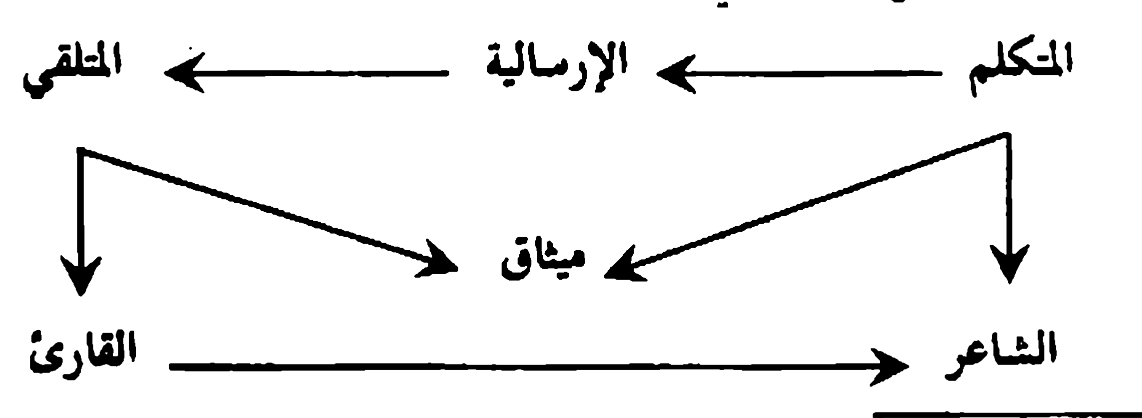
إذا كان المتخاطبان في اللغة العادية يعرفان بعضهما البعض ويتصرفان وفق هذه المعرفة المبنية على ميثاق معين، فإن الامر يختلف في مجال

(19) جاستون باشلار: جماليات المكان، ص: 46.

العمل الادبي ذلك أن الأديب لا يعرف في معظم الأحوال شيئا عن متلقيه المفترضين، أو أن ما يعرفه عنهم ضئيل نسبيا، وكيف ستكون قراءتهم للنص، هل هي قراءة مغرضة[20] أي قراءة تصدر عن سوء نية للإساءة إلى النص المقروء، أو إلى صاحبه، أم قراءة غير مغرضة أي تصدر عن حسن نية ؟ كما أن الأديب يجهل السياق الثقافي والاجتماعي والنفسي الذي ستتم فيه عملية تلقي إنتاجه الأدبي، وهذه أمور تنعكس على فهم العمل وتأويله.

ونظن أن الشاعر (بنسالم الدمناتي) في نصه الشعري «الطحلب الآخر» رغم كل هذه الاعتبارات فإنه يفترض قارئه الضمني (Lecteur implicite) والذي يتقاسم معه منطلقات معينة، وقد اعتمدنا على هذا الاستفراض نظرا لأن النص قد نُشرَ لاول مرة «بملحق ثقافي لجريدة العلم» وهو ملحق يصدر مرة في الأسَبوع، وغالبا ما يتم استهلاكه من طرف نخبة معينة ومحددة، خاصة ان ما مسلم به اليوم أن القارئ أصبح يقرأ النص انطلاقا من اهتمامات تخصه أو تخص الجماعة التي ينتمي إليها والقارئ يهدف دائما في قراءته إلى غاية، أي غرض[21].

وكنتيجة مترتبة على ذلك، فإن الشاعر «بنسالم الدمناتي» قد اختار قارئه اختيارا محددا، بهدف التواصل والتبليغ، ليعقد معه ميثاقا ننعته بالسيرورة ونمثل له كما يلي :



(20) عبد الفتاح كليطو : المنهجية في الأدب والعلوم الانسانية : "مشكلة القراءة" ص : 19.

(21) المرجع نفسه ص : 19.

وبهذا الطرح نستحضر القارئ / المتلقي (متلقي العمل الأدبي) لا كمستهلك للخطاب فقط بل كمكمل لعملية إنتاجه، وكمحقق لوظيفته الجمالية (La fonction esthétique) خاصة وأن العمل الادبي لا يكتسب قيمته من خلال بنياته اللغوية والجمالية فحسب، وإنما من خلال الوقع الذي يخلقه «الأثر المحدث»، ولعلنا نستخلص أن هذا الأثر مبني على نوعين من التفاعل:

- الأول جمالي مباشر ويقوم على الأثر الأولي الذي يحدثه النص في المتلقي.

- الثاني جمالي واع ومتأصل يستوعب هذا الأثر ثم يسعى إلى تبريره.

وبذلك يصبح المتلقي طرفا أساسيا في عملية تلقي النص، فالشاعر يفتح امامه جبهة جديدة ليحطم اللعبة الثنائية (مبدع/ نص) إلى افق أوسع وأرحب (مبدع / نص / قارئ).

والقارئ الذي اختاره الشاعر، هو نخبة تقرأ انطلاقا من اهتمامات خاصة، وهذا ليس معناه ان هذا النص الأدبي قد أسس على هذه الفئة من القراء بل إنه من خصائص العمل الأدبي أنه يخلق قراء جددا في كل لحظة، ذلك ان لكل زمن قراءه، كما أن لكل قارئ قراءته، وقد أشرنا إلى من أسميناهم «القراء النخبة» لأن هؤلاء يستطيعون ملء بياضات النص والمساهمة في إخراجه في صيغته المكتملة، لأنهم غالبا ما يقرأون وهم محملون بمخزون مرجعي يتم تلقي النص الجديد على ضوئه، أي بمعرفة قبلية عن الشاعر وطبيعة كتابته، وجيله وتوجهاته. . . وبذلك يحدث نوع من التفاعل (Interaction) أثناء عملية القراءة نتيجة التأثير المتبادل بين كل الأطراف المكونة للعمل الأدبي أي ما يسمى «بفعل القراءة»، وهذا النوع لايكفي لتحديد العلاقة بين الباث والمتلقي (القارئ)، إذ لا بد من أن ندخل في اعتبارنا أنها علاقة تتبلور من خلال الأوضاع التي يتخذها كل

منها بإزاء الآخر في عملية إنتاج الرسالة وتلقيها، وهي أوضاع يحكمها سياق تخييلي «و هو ما يؤدي إلى القول بأن استحضارالقارئ أمر ضروري بالنسبة لإنتاج النص كما أن استحضار المنتج أمر لابد منه في مستوى تلقي هذا النص، و هما استحضاران متخيلان عبر قناة :

أنا ⇄ أنا حين لحظة البث، وعبر قناة : هو ⇄ أنا حين لحظة التلقي. أي أن المبدع يعمل على تخيل قارئ معين يخاطبه من خلال إبداعه، بنحو ما أن هذا القارئ يعمل على تخيل باث يوجه إليه رسالته، فيسعى من جهته إلى أن يحدد معالمه وسماته»[22] .

وبذلك فإن النص الشعري يخلق سياقه الخاص والخاضع لأوضاع تخيلية مما يكسب مفهوم التواصل التفاعلي بعدا تخيليا ويجعل القارئ يشارك في إنتاج النص.

ورغم ذلك نقول إننا بما قدمناه لا نقصد قارئا محددا و فعليا يوجد قبالة النص، بل نقصد قارئا تجريديا أو ضمنيا بمفهوم (إيزر) والذي يوجد داخل النص الأدبي ذاته، وهو قارئ كفيل بأن يعكس التجربة التأثرية الموجهة وفق العوامل النصية.

- ما هو زمان النص ؟

يعتبر الزمان من العناصر الأساسية التي تشكل العمل الادبي، ويمكن ان نقاربه مقاربات عديدة تبعا لتعدديته و توزعه في النص أو خارجه، كما يلي :

أ- زمن خارج نصي، ويضم :

*** زمن الكتابة :**

و يرتبط بالشاعر، ويحدد هذا المستوى الزمني وضعية النص بالنسبة للمرحلة التي كتب فيها و هي شهر يونيو يوم 5-1991، وهذا الزمن قد

---

(22) إدريس بلمليح : المختارات الشعرية، ص : 278.

يفيدنا إذا ربطناه بحياة الشاعر الخاصة في فهم النص وإضاءة بعض عتماته، وهو زمن سمته التوتر والقلق.

* **زمن القراءة :**

و يرتبط بالقارئ، حيث يحدد الفترة التي يقرأ فيها النص، وهي فترة قد تمتد في أزمنة متعددة ومن سماتها الأساسية السيرورة، ولعل زمن قراءتنا الآن يختلف جذريا عن زمن القراءة الماضوية.

ب - زمن داخلي أو الزمن التخييلي :

وهو زمن يتوزع عبر فضاءات النص ويتجسد بالكتابة، وليس من الضروري ان يتماثل مع زمن التخييل، فقد يؤسس على الاختلاف والتنويع بين الأزمنة، وقد يلعب المبدع على التماثل تبعا لحالته النفسية، وبالنسبة لنص «الطحلب الآخر» فإنه يقوم من جهة زمن التخييل على: الزمن الحاضر، ويتجلى ذلك واضحا من خلال ركون الشاعر إلى صيغ الافعال الآتية : يستر-أبحث-أضحك-أختلي-أسكب-يرسو-تعريت-تبرجت..

وبذلك ينشد الشاعر إلى الزمن الحاضر كلحظة مترامية الأطراف تظهر في كل أجزاء النص بشكل منظم، ولا شك أن هيمنة الحاضر بهذا الشكل كان وليد الحالة النفسية للشاعر الذي اختار نقطة الانطلاق والبداية من الحاضر ولينتهي أيضا بالحاضر الآني، وكأن ما يهمه من الزمن هو اللحظة الحاضرة، حيث يتصور الآن كنهاية، وحين تتوجه مخيلته نحو الماضي (الزمن الضائع) وهو زمن يمتد في أعماقه وليس مجرد ذكرى لأنه يشكل وجوده واستمراريته فإنه لايسجل من هذا الماضي إلا وقائع التنكر والضياع وانقطاع الصلة بالمكان (زمن دفن الشعراء، والأولياء خارج الأسوار...).

وبذلك فإن الزمن يمتد على خط مستقيم وفي اتجاه واحد وعبر إيقاع منسجم وكأنه يريد اقتلاع كل ما قد يقف أمامه سدا :

خـــط
←
الزمـــن

ويخضع هذا التناغم الزمني لقاعدة جمالية تساهم في تشكيل شعرية نص «الطحلب الآخر» وتركيب أجزائه، وتظهر هذه الحركة أكثر عمقا مع نمو النص خاصة حين ينسج الشاعر كل الأزمنة في زمن واحد، وكأن هذا الزمن لحظة تختزل الوجود والزمن بأجمعه وتعيد ترتيبهما من جديد في مخيلة القارئ، وهو يتمم عملية القراءة، كما يظهر الحاضر ككتلة نصية متكاملة تنتشر في النص كله ليجمعها القارئ.

هكذا يرتسم الزمن خطا أفقيا يحدد لنا فترة التوتر والغضب والخوف التي يحياها الشاعر، ويرتبط بها شعوره وإحساسه، والملاحظ أن الزمن في النص لايوجد مستقلا عن المكان او تجربة الشاعر إزاء المكان بل إنه يبني المكان أيضا بالزمان، وبذلك فإن زمن (الطحلب الآخر) زمن يساهم بعمق في بناء النص وتشكيل إيقاعه، وتقديم شخصية الشاعر بشكل خطي، حيث لم يحتج الشاعر إلى الزمن الماضي رغم أنه ركن إلى الاسترجاع حين استحضر مكناس عبر الذاكرة لإعادة تفسير الزمن تفسيرا جديدا على ضوء الحاضر، أو لإبرازه كما هو، وإنما ركن إلى الحاضر كمقام يجسد معالم الذات ومواضع التحول فيها فارضا بذلك على نفسه قيدا طريفا، وعلى القارئ إيقاعا منسجما يجعله لا ينتقل بين الأزمنة، وإنما يعيش لحظة واحدة متصلة إلا أنها في العمق عبارة عن لحظات متناهية.

5 – المكان المؤطر للنص :

كما يدرس المكان في النص الروائي والمسرحي والقصصي واللوحة الفنية يمكن أن يدرس في النص الشعري من خلال جماليات تشكله

ووظيفته وأبعاده الدلالية لأنه يلتصق بذات الإنسان، فحين يلجأ الشاعر إلى المكان فإنه يسعى بذلك للتعبير عن مكامن نفسه ودواخله وتصوراته للحياة والوجود. فهو يعيش فيه ويمارس تكوينه وأحلامه وعشقه ومرارته وحريته ويموت فيه، ويكتسي المكان قيمته من خلال إدخاله في النظام اللغوي، أو ما يسميه يوري لوتمان (نظام النمذجة الأولي)، فاللغة هي النظام الأولي لتحويل العالم إلى أنساق.

بالنسبة للنص الذي ندرسه فإنه موقع (بالخميسات) كفضاء خارج نصي، وتحضر هذه المدينة بحكم أنها المكان الواقعي الذي يعيش فيه الشاعر العادي والمؤسساتي والعرفي يوميا، بينما يخلق النص فضاءاته الخاصة عبر المتخيل الشعري، وهي فضاءات متعددة وكثيرة، وتتغير تبعا لتناسل البنيات النصية وتعقدها، وقد حاول الشاعر ان يخلق بينها انسجاما عبر اعتماده على السياقين النفسي والتاريخي لذاته أولا، وللقارئ ثانيا، وبذلك يصبح المكان مجموعة علامات لها دلالات إيحائية خارج العرف اللغوي، وهو ما يسميه (جيرار جينيت) : «الاستعارة المكانية» (Métaphore Spaciale)، وإذا حاولنا محاصرة المكان في النص فإنه يظهر في كل مقاطع النص بأشكال مختلفة تجعل منه إما مكانا مفتوحا أومغلقا : مكناس- المقهى- الحانة - باب الحرص (القوس) - القبو (السجن) - الكُتّاب - الأسوار -المزارع - البساتين - البيت.

إنه مكان تشكيلي، وقيمة مركزية في النص، والملاحظ أنه متعدد وعناصره متفاعلة فيما بينها، ويشكل بعدا جماليا من أبعاد النص، وقد بدأ المكان عبارة عن فضاء متسع (مكناس) ثم أخذ يضيق تبعا لحركية النص - (المقهى والحانة والكتاب. . . والبيت) - ورغبة الشاعر وإرادته الشعورية واللاشعورية.

إن علاقتنا بالمكان تنطوي على جوانب شتى ومعقدة وتجعل من معايشتنا له عملية تتجاوز قدرتنا الواعية لتتوغل في لاشعورنا، فهناك

أماكن جاذبة تساعدنا على الإستقرار، وأماكن طاردة تلفطنا فالإنسان لايحتاج فقط إلى مسافة فيزيقية يعيش فيها، ولكنه يصبو إلى رقعة يضرب فيها بجذوره وتتأصل فيها هويته»[23].

ونتساءل لماذا مكناس كفضاء تخيلي يؤطر النص بشكل قوي؟

إنها إسم مدينة أي عبارة عن مكان واقعي (réel) وموجود فعلا، ويرتبط بالبعد النفسي والعاطفي للشاعر، إنها مكان الطفولة الذي يسكن أعماقه، والحلم الذي يتجاوز القدرة الواعية للشاعر ليتوغل في لاشعوره، فهو لا يرتبط بهذه المدينة كمساحة جغرافية فيزيقية محددة، وإنما يعشقها لأنها مكان ليس كباقي الأمكنة الأخرى، مكان يضرب بجذوره، يتأصل فيه بهويته فهو مكان يعادل (المرآة) حيث يرى فيها الشاعر ذاته (الأنا ترى صورتها في المكان) فهو جزء من بناء شخصيته، إنه صورة الام، وقد استحضرها الشاعر بلغة صريحة مرتين في النص : المقطع(1) والمقطع (3).

– م 1 : **ما أنا غريب عنك مكناس**

– م 3 : **ليس للشاعر بيت فيك– مكناس–**

«وتختلف القيمة التي يضفيها الفرد على الحيز الذي يعيش فيه من مجتمع إلى آخر، ولكن الظاهرة التي تجمع بين البشر جميعا أن الفرد يدافع عن حيزه، وكثيرا ما يمنع الآخرين من الولوج إليه»[24].

وحين تحضى مكناس كفضاء بهذا الفيض العاطفي، فإنها تمتد بالشاعر أيضا بثقلها التاريخي، حيث تبرز مكناس مسيجة بالأسوار والبساتين، والزيتون ومزارع النعناع، إنها مكناس الماضي والحاضر والذاكرة

---

(23) يوري لوتمان : "مشكلة المكان الفني"، تقديم وترجمة سيزا قاسم. عيون المقالات ع 8. 1987.

(24) المرجع نفسه، ص : 60

والواقع. إلا أن الشاعر يقفز على هذه الفضاءات المفتوحة والكبيرة والمليئة بالمتناقضات، حيث يدفن أولياؤها ورجالها الصالحين خارج الأسوار، يقول :

خارج الأسوار دفنت الاولياء

ليرتبط بمكان محدد «البيت» ونعتبره البنية الدالة والعميقة المجسدة بصراحة لطبيعة العلاقة بين الشاعر والمكان، وهي علاقة قوامها التوثر، لأن وعي الشاعر يقطن البيت : «إن الأماكن التي مارسنا فيها أحلام اليقظة تعيد تكوين نفسها في حلم يقظة جديدة ونظرا لأن ذكرياتنا عن البيوت التي سكتاها نعيشها مرة أخرى كحلم يقظة، فإن هذه البيوت تعيش معنا طيلة الحياة»[25].

يقول الشاعر :

ليس للشاعر بيت فيك – مكناس –

وحين يستحضر «البيت»، فإنه يحن إلى طفولته ويبحث عن الإستقرار الذي افتقده والمتعة والدفء والألفة، إلا أنه يستفيق على حلم مخيف، إذ زال البيت وتهدم المكان، ولم تبق إلا الذكرى «إن وظيفة الشعر الكبرى هي أن يجعلنا نستعيد مواقف أحلامنا. . فالبيت الذي ولدنا فيه هو أكثر من مجرد تجسيد للأحلام، كذلك كل ركن وزاوية فيه كان مستقرا لأحلام اليقظة، وعاداتنا المتعلقة بحلم اليقظة ما قد اكتسبت في ذلك المستقر»[26] وفي هذا السياق يستحضر الشاعر «سيدي قدور العلمي» الذي أهدى إليه هذا النص (انظر نص : الطحلب الآخر) وهو من شعراء مكناس، قال الشعر في مواضيع عديدة خاصة في الزهديات، وله نصوص شعرية قد تبرز ذلك، يقول مثلا :

(25) غاستون باشلار : المرجع نفسه ص : 37 ,38.
(26) المرجع نفسه، ص : 37 ,38.

مْشَاتْ دارِي في خمَاكُومْ ي أهل مكناس

مشات دارِي في حماكوم ي أهل الكرايم

يا العلم بالصرخة ما خفاك حالي

مْعَزْتكْ يأَربِّي مفتُوحَة للصَّاغِي بْحَالِي.

ولعل الشاعر حين لجأ إلى الكتابة مستحضرا «سيدي قدور العلمي» فإنه يرغب في أن يضفي على ما يكتبه طابع الخلود ويجعل الكتابة تعيش في حاضر دائم. وقد أحس في لحظة من اللحظات أنه يعادل «سيدي قدور العلمي» ويتماثل معه في مأساته، يقول :

ليس للشاعر بيت فيك – مكناس–

فضيني، واجعلي الأسوار سدا

فلقد واريت أمي فيك واستسلم إدباري..

وداعا

إنني لاشيئ.

لأنه بدون بيت، ولعل الإنسان بدون بيت هو كائن «مفتت، لأن البيت هو جسد وروح، وهو عالم الإنسان الأول»[27] .

وحين عبر الشاعر جاعلا الأسوار سدآ، فكأنه يستلهم قوله تعالى في سورة (يس) : ﴿ وجعلنا من بين أيديهم سَدآ ومن خلفهم سدأ فاغشيناهم فهم لا يبصرون﴾[*]. هكذا يفجر الشاعر غضبه على كل «طحلب» متظلم يسعى إلى قطع خيوط الحياة والحلم والسعادة التي تربطه (بمكناس) كفضاء أصبح يحس فيه الشاعر بالغربة والخوف مما جعله يقدمها كانها أطلال.

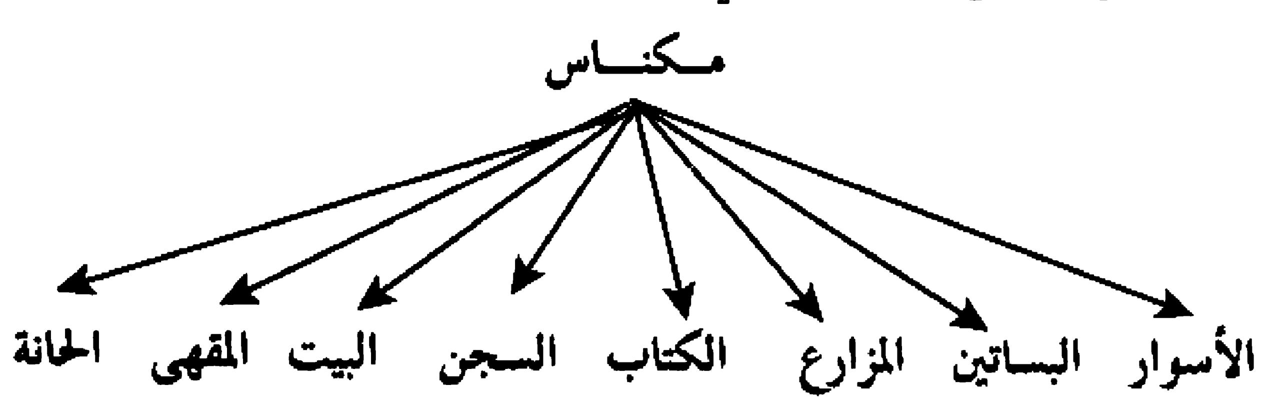
---

(27) المرجع نفسه، ص : 38.

(*) سورة يس، آية : 9.

وبذلك فالنص أشبه برحلة يعيشها مع المكان وفيه، منذ اللحظة الأولى التي نقرأ فيها النص، لكنه مكان ليس ككل الأمكنة بحكم علاقة الشاعر الخاصة به، وهي علاقة أصبحت قائمة على التوتر والقلق مما جعل (الأنا) تتشبث بذاتها وتتمركز حولها رافضة كل أنواع الخضوع والهيمنة، لأنه «كلما ازداد المجتمع رفضا للأنا تشبثت هذه الأنا بذاتها وازدادت تمركزا حول نفسها، وفي مثل هذه الحالة يتفاقم التضاد بين الفرد والمجتمع، وبذلك نواجه رفضا مزدوجا : رفض المجتمع للإنسانية، أي استيلابه وتغريبه، ورفض الفرد للمجتمع بالمقابل»[28].

ويمكن أن نمثل للمكان النصي بهذا الشكل :



وللشاعر علاقة خاصة مع كل مكان من هذه الأمكنة، خاصة « البيت» فهو يمثل كونه الحقيقي لأنه مكان محفور في ذاكرته ودواخله وذلك شيء لا يمكن أن يتخيله إلا من يشعر أن للبيت الأول جذورا تمتد في أعماق الذات.

ولعل بعض البنيات اللغوية الواردة في النص تبرز ذلك، خاصة ركون الشاعر في لحظات عديدة نتيجة توتره النفسي إلى ثنائية : النفي والإثبات من خلاله استعماله صيغ النفي ثم الإثبات والتوكيد.

وقد أحس الشاعر بالإنفصال القوي عن المكان الذي أحبه وسلب منه، لذلك أصبح يشك أنه عاش فيه فعلا، إنه لم يعد سوى ذكرى رغم أنه كان

(28) يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي. دار الحقائق. الطبعة 3. السنة 1983. ص، 31.

متأصلا في أعماقه، فالبيت الذي ولدنا فيه على حد تعبير - باشلار- هو أكثر من مجرد تجسيد للمأوى، هو تجسيد للأحلام كذلك، فكل ركن وزاوية فيه كان مستقرا لأحلام اليقظة، وعادتنا المتعلقة بحلم يقظة ما قد اكتسبت في ذلك المستقر[29].

والحلم الذي يتجاوز القدرة الواعية للشاعر ليتوغل في لاشعوره، فهو لايرتبط بهذه المدينة كمساحة جغرافية فيزيقية محددة، وإنما يعشقها لأنها مكان ليس كباقي الأمكنة الأخرى، مكان يعادل (المرآة) حيث يرى فيها الشاعر ذاته (الأنا ترى صورتها في المكان) فهو جزء من بناء شخصيته، إنه صورة الأم، وقد استحضر الشاعر مكناس بلغة صريحة مرتين في النص: المقطع (1) والمقطع (3).

- م 1 : ما أنا غريب عنك مكناس

- م 3 : ليس للشاعر بيت فيك - مكناس -

إن الشاعر بذلك يكشف عن تواصل زماني مع المكان، «فلا مكان بدون زمان (. . .) وفي نفس الوقت الذي تدمر فيه الصورة الشعرية العلاقة المنطقية بين الماضي والحاضر والمستقبل، وتتحول إلى «زمكانية» وجودية خاصة بتكوينها، وهي قادرة على أن تحول الزمان إلى مكان، والمكان إلى زمان بفضل ما تتميز به من قدرة على تخطي حواجز الزمان والمكان، وإبدالها في وجود جديد، وهي بذلك قد تخلق موقفا دراميا بما نرسمه من مكان وزمان قد يمتد من الصورة الشعرية المفردة إلى الصورة الشعرية العامة التي تحتوي النص كله»[30].

ويمكن أن نقسم المكان النصي إلى قسمين :

---

(29) باشلار. المرجع نفسه، ص : 44.
(30) باشلار. المرجع نفسه، ص : 22.

- أمكنة مفتوحة وهي غالبا ما تمثل بالنسبة للشاعر منبعا للخوف والتوتر.

- أمكنة مغلقة وهي تبعث فيه إحساسا خاصا حيث ينطوي فيها ليبعث فيه الأمل، وقد لجأ الشاعر إلى الحانة وهو في لحظة خوف حتى يحس بالدفء والأمان والإرتياح والمتعة، ويشكل هذا المكان نقطة تحول في أحاسيس الشاعر لذلك كان اختياره لهذا المكان مبنيا على وعي مسبق وهذا ما جعله يعيش لحظة حلم ابتدأت بتحديد بعض الطقوس المحيطة بهذا المكان : «الإختلاء - النديم - المرفأ - الكأس- الثلج الصناعي - المزج. . . لينتقل وهو في لحظة الإنتشاء إلى التنبؤ والإشراق» إن المكان المغلق في النصوص يجسد في شكل صور مكانية مختلفة مألوفة مثل الدار والمدينة والوطن. وتتصف هذه الصور بصفات معينة مثل «الألفة» أو «الأمان»، ويتعارض هذا المكان المغلق مع المكان «الخارجي» المفتوح، ومع سماته، ومنها «الغربة» و «البرودة» و«العدوانية»، وقد يفسر المكان المغلق والمكان المفتوح تفسيرات معاكسة لما سبق»[31].

إن ما تقدم يتيح لنا تسجيل خلاصة عامة مفادها أننا قد حاولنا بدراستنا لهذا النص الشعري أن نخرج مصطلح «السياق» من حمولته اللسانية والسيميائية، إلى مجال الدرس الأدبي، وقد بينا مدى اجرائيته وصلاحيته كأداة تحليلية وتأويلية، لكي لا يبقى ما قدمناه من نظريات وتصورات مجرد آراء، وهذا ليس معناه أن الاعتماد على مصطلح السياق يعني أن النص يمنح للقارئ معانيه بصفة فورية نظرا لأن النص الشعري فيض من المعاني لا تعطينا نفسها لأنها محكومة أساسا بسياق تخيلي يقوم على نوع من التفاعل هو الذي يضمن فاعليته التواصلية القائمة على إيقاف الزمن السطري وتحويله إلى زمان ذاكري.

---

(31) يوري لوتمان. ص 81.

الخاتمة

لقد كان هذا العمل محاولة منا للإقتراب من مصطلح السياق بمختلف مستوياته، وقد عملت قدر المستطاع على تقديم مجموعة من الآراء والتصورات من خلال تتبعنا لها وعرضها، سواء عبر تشكلها أو بنيتها، تحدونا رغبة عميقة في تسييج هذا المصطلح وتكوين رؤية عامة عنه تكشف أهم خصوصياته، وقد تطلب منا ذلك أن ننتقل بين مجالات معرفية عديدة معظمها حديث في الغرب بل لا يزال محط مناقشات عديدة، دون أن ننسى مساهمة الفكر العربي.

ولقد ساعدنا في ذلك الطريقة التي اتبعنا في هذه الدراسة، إذ انطلقنا من أهم الآراء التي استجمعت حول السياق في كتب غالبا ما تعبر عن تصور نظري بنيوي أوسيميائي، وحين حاولنا تجاوزها انتقلنا إلى كتابات تستحضر الواقع النفسي والإجتماعي والثقافي في معالجتها لمسألة السياق، ذلك أنها تتجاوز العلاقات النصية إلى العلاقة بين النص والمتكلم والمتلقي، واستطعنا اعتمادا عليها أن نبني السياق بناء تركيبيا.

وأود أن أعرض في خاتمة هذه الدراسة بعض النتائج التي توصلت إليها قصد التذكير بها في صورة مختصرة.

أول هذه النتائج تتمثل في ما يلي :

رغم تعدد النظريات التي عالجت السياق وتشعبها فيمكن حصرها في إطارين :

- أحدهما ضيق، ويحدد السياق فيما هو لغوي محظ، كالمورفيمات والمعجم والتركيب.

- والثاني واسع، حيث السياق يعادل كل ما هو خارج لغوي، كالعلاقات الإجتماعية والثقافية والنفسية التي تحيط بإنتاج الملفوظ «المقام» ويمكن أن ندرج في هذا الإطار أيضا السياق التخيلي وهو سياق يخضع لأوضاع تخيلية هي التي تجمع بين المبدع والمتلقي وتضمن للنص قابليته التواصلية، وتبعده عن الإطار المرجعي الذي يربط بين النص والواقع، وبذلك فالقارئ من هذا المنظور يساهم في انتاج النص.

والنتيجة الثانية تتمثل في فقر الثقافة العربية القديمة والحديثة إلى قواميس عامة أو متخصصة تساعد الباحث كخطوة أولى على ركوب مغامرة البحث، ونظن أن القاموس أصدق صورة عن تركبة المجتمع ثقافيا وسياسيا واقتصاديا... ولعل الوقت قد حان لتأليف قواميس عربية متخصصة تقوم على أسس علمية دقيقة على غرار المعجمية الغربية، لإزاحة السياج المضروب على المدونة العربية لعصور عديدة والتي عجزت مجامع اللغة العربية عن تجاوزها.

ومن ضمن ما انتهيت إليه أيضا في هذه الدراسة أنه يمكن أن ندرس النص العربي القديم بصورة جديدة ونكشف فيه عن طاقات معرفية جديدة دون أن تكون الغاية هي إثبات الذات بحكم أن الإستراتيجية التي توجه عملنا الآن تتجاوز مثل هذا الطرح، وبناء عليه فحين نقول إنه يمكن الحديث عن نظرية «سياقية عربية» فنحن لا نضع مصطلح السياق على نفس العتبة التي يقف عليها الآن في الثقافة الغربية، لأننا سنكون بذلك فقط في موقع الدفاع عن معارفنا، والواقع أننا نهدف إلى جعل القارئ يدرك أن تاريخه المعرفي «التراث» تاريخ صلب وله مميزاته وخصوصياته التي يجب أن تعاد قراءتها من زاوية تاريخية المعرفة للمحافظة على هويتنا أمام التحديات المعاصرة، فعلماء أصول الفقه حين تحدثوا عن السياق وقاربوه، فهم لم يفهموه بنفس الشكل الذي نجده الآن عند (أوستين) و(سيرل) و(فان ديك)... كذلك القارئ الذي كانت توجه إليه تلك

المعارف، فإنه لم يكن يؤولها إلا في دائرة النظام المعرفي الذي كان سائدا أنذاك، لذا فلا يمكن الحديث عن (السياق) عند الأصوليين كما هو متواجد الآن، لأنه لم ينتج قارئه بنفس الشكل السائد في زماننا حيث السياق يعالجه المهتمون بالصوتيات والمعجم والتركيب والدلالة والتداولية وعلم النص وتحليل الخطاب، وحين نعيد الآن قراءة مصطلح السياق عند الأصوليين فإننا نقرؤه لنكسبه جزءا من قوته التداولية متجنبين ما أمكننا القراءة السلفية المحافظة ومؤمنين بالتواصل والمثاقفة والتأويل.

ثم إن بحثنا في الكتابة الشعرية عند الشاعر «بنسالم الدمناتي» من خلال نص من نصوصه الشعرية يجعلنا نخرج أيضا بأهمية وقيمة السياق، إذ يقدم إمكانيات عديدة للإحاطة بالنص، واستجماع كل خصوصياته، وضبط مختلف علاقاته من خلال تجاوز القراءة النصية المغلقة إلى قراءة مفتوحة تمكن القارئ من الوقوف على النص الشعري في سيرورته التواصلية ولعل هذه القراءة تعتبر مؤشرا هاما يسمح لنا بصياغة استراتيجية تحليلية أوسع تشمل نُصوصاً أخرى تاريخية وفلسفية واجتماعية ودينية . . .

وأخيرا أجدني أمام حقيقة أقر بها، وهي أنني لم أنته بعد من محاصرة مصطلح السياق وتسييجه بعمق، ذلك أن هناك جوانب منه لازالت تحتاج إلى التوضيح والدراسة، ومما قدمناه لا يعدو أن يكون محاولة اعتمدت الحوار، وفي هذا السياق يقول «النفري» في (موقف العلوم كلها) :

«وإذا دخلت العلوم، فأدخلها عابرا، إنما هي طريق من طرائقك، فلا تقف فيه، فيأتيك الذين بنوا فيه، فيغزوك بمنازلهم التي بنوها فيه . . . »

النفري : نصوص صوفية غير منشورة.

المراجع المعتمدة في الدراسة

المراجع العربية :

I – القواميس :

1 – ابن منظور : أبو الفضل جمال الدين بن منظور : لسان العرب ج : 10، دار صادر . بيروت . لبنان .

2 – الزمخشري : جاه الله أبي القاسم محمود بن عمر : أساس البلاغة . دار الفكر .

3 – المعجم الوسيط : تأليف جماعة من الباحثين (مجمع اللغة العربية) الجزء الأول . دار الفكر .

II – المصادر والمراجع :

1 – أحمد العلوي : الطبيعة والتمثال– مسائل عن الإسلام والمعرفة– الشركة المغربية للناشرين المتحدين .

2 – ادريس بلمليح : المختارات الشعرية وأجهزة تلقيها عند العرب من خلال المفضليات وحماسة أبي تمام . منشورات كلية الآداب والعلوم الإنسانية بالرباط، سلسلة رسائل وأطروحات، رقم 2، السنة 1995 .

3 – أبو حامد محمد بن محمد الغزالي : المستصفى من علم الأصول . دار الفكر، بيروت .

4 – بنسالم الدمناتي : قفاز بلايد ديوان شعر منشورات السفير، الطبعة الأولى . الرباط 1992 .

5 - حسن ظاظا : كلام العرب - من قضايا اللغة العربية - دار النهضة العربية 1976 .

6 - سعيد يقطين : انفتاح النص الروائي : النص -السياق . المركز الثقافي العربي . الطبعة الأولى . 1989 .

7 - سيف الدين أبو الحسن علي بن محمد الآمدي : الإحكام في أصول الأحكام . دار الكتب العلمية ، بيروت .

8 - طاهر سليمان حمودة : دراسة المعنى عند الأصوليين . الدار الجامعية . مصر 1983 .

9 - طه عبد الرحمن : في أصول الحوار وتجديد علم الكلام ، المؤسسة الحديثة للنشر والتوزيع ، الطبعة الأولى ، 1987 .

10 - عبد الفتاح كيلطو : الكتابة والتناسخ . مفهوم المؤلف في الثقافة العربية ترجمة عبد السلام بنعبد العالي . المركز الثقافي العربي . 1985 .

11 - عبد الفتاح كيلطو : المنهجية في الأدب والعلوم الإنسانية . دار توبقال للنشر الطبعة الأولى : 1986 .

12 - عبد الرحمن جلال الدين السيوطي : المزهر في علوم اللغة وأنواعها . دار الجيل .

13 - عبد الوهاب خلاف : أصول الفقه . دار القلم 1981 .

14 - علي حسب الله : أصول التشريع الإسلامي . دار المعارف . مصر . 1971 .

15 - محمد الخطابي : لسانيات النص : مدخل إلى انسجام الخطاب . المركز الثقافي العربي . الطبعة 1 . 1991 .

16 – يوسف اليوسف : مقالات في الشعر الجاهلي . دار الحقائق . الطبعة الثالثة 1983 .

III ـ المجلات :

1 – مجلة عيون المقالات : محور جمالية المكان . ع . 8 . 1987 .

2 – مجلة دراسات أدبية ولسانية . ع1 . س1 . 1985 .

3 – مجلة دراسات أدبية ولسانية ع . 6 . 1992 .

4 – مجلة الفكر العربي المعاصر : ع . 76–77 . س . 1989 .

– مجلة كلية الآداب والعلوم الإنسانية فاس (ندوة حول المصطلح النقدي وعلاقته بمختلف العلوم) 1988 .

5 – مجلة الكرمل العدد 11 . السنة 1984 .

المراجع الفرنسية :

I – القواميس :

1- J .Dubois Dictionnaire de Linguistique Librairie Larousse. 1973.

2 - J . Greimas, J Courtés : Sémiotique, Dictionnaire raisonné de la théorie du langage. Hachette Universsité .1979.

3 - O .Ducrot . T . Todorov : Dictionnaire encyclopédique des Sciences du Langage. ED. Seuil. 1972.

4 - A Rey. J Reydebove : le petit Robert - 1 . 1983.

5 - J .Chevalier, A. CHEERBANT : Dictionnaire des symboles, Mythes, Rêves, Coutumes, Formes, Figures, Couturs, Nembres, ed, Robert Laffont et jupiter France 1969.

II - المراجع :

1 – C. Antonie : le Démonde la théorie littérature et sens commun, ed, Seuil, Mars 1998.

2 – Break le (H) : La Sémantique. librairie Armand Colin 1974.

3 - Jakobson (R) : Essai de linguistique Générale. ED Minuit.

4 - Linsky (L) : Le problème de la réference. ED. Seuil. 1974.

5 - Armingand (F) : La pragmatique. Que-sais-je 1985.

6 - Austin (J) : Quand dire, c'est faire. Seuil. Paris : 1970.

7 - A. Kébedi Varga : Théorie de la littérature. (Ouvrage Collectif) C.N.L : 1981. Paris.

8 - Benveniste (E) : Problèmes de linguitique Générale. ED. Gallimard 1974.

9 - ISER (W) : L'acte de lecture théorie de l'effet esthétique. Margada.

10 - ECO (V) : Lector in fabula. Bernard Grasset. (1985) Paris.

ملحق

الطحلب الآخـــر

إلى الشاعر : قدور العلمي

شعـــــر : بنسالم الدمناتي

ما أنا وجه غريب عنك - مكناس-

وما أنت غريبة

أنا فيك الضال رغم الثوب الذي يستر عربي

- سادرا -

لم يتسخ حتى وإن بلله القطر

ولفته الحبيبه

غير أني تائه

أبحث عن قاعدة -أضحك فيها- مثل باقي المتعبين

أختلي تحت غطاء السكر - في مقهى

نديمي

ملهمي، في مرفإ الحانة كأس

قد تجلت

وأنا أسكب فيها النار

والثلج الصناعي

سلاما لمدى المزج

وفعل الذائب الماسي

وزيغ المقلتين . . .

ما تخطت جرعة الموجب -باب الحرص-

حتى انبسط الداعي لمحو الفقر

-في لحظة إشراقه-

لكن :

مبدأ الإبحار في الظن

لا يرسو على كل احتمالات اليقين

يابلادي

قد تعريت

تبرجت

تبوأت النواصي

ودفنت الحزن في ثوب : البهاليل

وفوضت لأحبارك دفن الشعراء

خارج السور دفنت الأولياء . .

لم يكن فيهم نديم المنتدى الواهي

ولا من يمسح الباب

ويمشي حانيا

أو يبدع البسمة في فم إبليس

ويلقي كلمات الأرض في مزرعة الأنس

ويدنو من لفيف العظماء . . .

* * * * * * * * * *

أيحاكي الورد في مزرعة النعناع لبلاب

طفيلي ؟

وللزيتون أسرار

وللمنبوذ مجنى الغصن

يا أرض إليك الآن - مواويلي -

إليك الحب

والنادر من يأخذ من عينيه مشروبا

ولا يفصل داء الموت عن ذات التراب .

* * * * * * * * * *

ورقي يلبسه الحرف وعشقي .

يصعب الرفض - امتنانا -

لسواد الحبر للقوس

لقبو

وبساتين وأنغام الرباب

ليس للشاعر بيت فيك - مكناس -

فضني، واجعلي الأسوار سدا

فقد واريت أمي فيك واستسلم ادباري . . .

وداعا

إنني لا شيء

لو كنت أساوي طحلب الماء

لكانت بطاقتي عليها رقع الأوبة

- تأشيرة مكدود-

يرى الجنة في النار . . .

وفي النار يرى بابا قصيا

ليس بابا للإياب . . .

الخميسات : 1991/06/05

فهرس

القسم الثالث